سلسلة تصدر عن مجلة البيان

كتاب البيان

تدبر القرآن

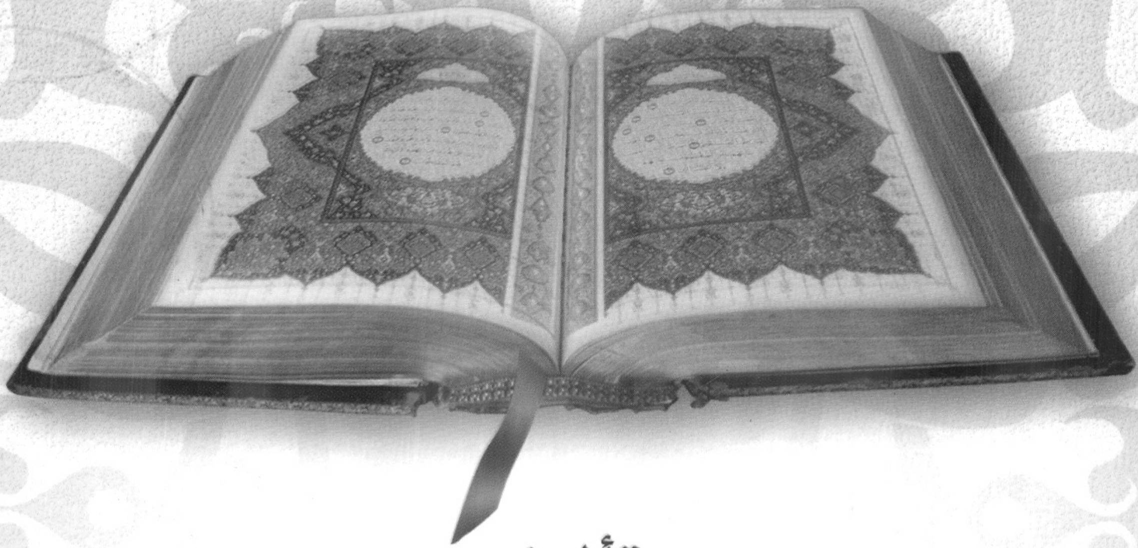


تأليف
سلمان بن عمر السنيدي

سلسلة تصدر عن مجلة البيان

كتاب البيان

تدبر القرآن



تأليف

سلمان بن عمر السنيدي

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

تدبر القرآن

تأليف

سلمان بن عمر السنيدي


بسم الله الرحمن الرحيم

«من لم يكن له علم وفهم وتقوى وتدبر ، لم يدرك من لذة القرآن شيئاً» .

[الزركشي، البرهان، ٢ / ١٧١]

«إني لأعجب ممن قرأ القرآن ولم يعلم تأويله كيف يلتذ بقراءته !» .

[ابن جرير الطبري، معجم الأدباء، ١٨ / ٦٣]

«المطلوب من القرآن هو فهم معانيه والعمل به ، فإن لم تكن هذه همة حافظه لم يكن من أهل العلم والدين» . [شيخ الإسلام ابن تيمية، الفتاوى، ٢٣ / ٥٤]

«يا ابن آدم ، كيف يرق قلبك وإنما همتك في آخر السورة ؟ !» .

[الحسن البصري، مختصر قيام الليل للمروزي، ص ١٥٠]

«إذا مر ـ متدبر القرآن ـ بآية وهو محتاج إليها في شفاء قلبه كررها ولو مائة مرة ولو ليلة ، فقراءة آية بتفكر وتفهم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهم ، وأنفع للقلب ، وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن» .

[ابن القيم، مفتاح دار السعادة، ص ٢٢١]

المقدمـــة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وبعد.

فكثيراً ما كان المرء يسمع الحث على كثرة تلاوة القرآن مدعماً بآيات وأحاديث وأقوال السلف الصالح، وكانت غفلة الناس عن القرآن دافعاً لمثل هذا الحث أن يظهر ويُكرر فوق المنابر، ويكتب عنه نشرات ومقالات، ولا شك في فضيلة تلاوة القرآن وكثرة أجرها، فالقرآن كله بركة، ولكن ما الحكمة من كثرة القراءة؟ وأيهما أفضل: كثرة القراءة أم التأني بالقراءة إذا كان وقت القراءة واحداً؟ وهل يكرر المرء الآيات التي أَثَّرت فيه أو يستثمر الوقت في مزيد من القراءة ليختم السورة؟ ولماذا لا يخشع أكثر الناس إلا عند آيات العذاب وذكر النار؟ وما الذي عاب الله ـ سبحانه ـ به صنفاً من الناس في قوله: ﴿**أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ [**محمد**: ٢٤]، على الرغم من أنهم كانوا يقرؤون القرآن ويسمعونه؟ وما أثر القرآن على قلب الإنسان القارئ؟ ولا شك أن القرآن عظيم وجليل، ولكن أين هذه العظمة وذلك الإجلال حين قراءته لا حين التحدث عن فضائله؟

لقد كانت هذه الأسئلة وما في معناها تدور في خَلَدي، فتلمست القراءة فيما كُتب عن التدبر فوجدت الأمر عجباً؛ ففي الحث على التدبر آيات وأحاديث ومواقف، وأقوال وأحوال للسلف أكثر عدداً من مثيلاتها الدالة على فضل القراءة، بل أقوىٰ حجةً وأعمق أثراً[1]!

وبدأت تظهر جلياً إجابات واضحة عن تلك الأسئلة، وتفتحت جوانب

(١) انظر كلام الآجري، ص ٢٠، ١٠٩، والنووي، ص ٢٠.

رحبة حين قراءة القرآن، ولم تكن تلك الإجابات سراً مكنوناً، أو معاني مضمرة في بطون التفاسير، أو ألفاظاً مجملة لم تتضح مقاصدها، بل كانت متمثلة في كلمة واحدة هي التدبر.

لم يكن التدبر عند سلفنا الصالح درساً يسمع أو كتاباً يتلى بقدر ما كان شعوراً ينبض في قلب القارئ وهو يتجه لقراءة القرآن، وثمرة يقصدها حين تلاوة الآيات، وموردا ينهل منه القلب حين تدارسه، فإذا حال بينه وبين منهله لفظٌ لم يدرك معناه أو مَثَلٌ لم يفقه مغزاه أو تشبيهٌ لم يأسره تركيبه اللغوي توقف، وبحث وفتش حتى يدرك قلبه الغنيمة، ولم يرض أن يكون هذا العارض مسوغاً لمواصلة القراءة وإلا فإن الهدف قد تغير، والمقصد من القراءة تحول إلى ما هو أدنى، وتُركَ الذي هو خير.

إن قلب المتدبر للقرآن ينتابه تطلُّع وتشوُّف كما ينتاب المريض شعور بالبحث عن العلاج، أو كما ينتاب الحائر شعور بالبحث عن الدلالة والهداية، إن المتدبر للقرآن في قلبه حاجةٌ ماسةٌ وفاقةٌ متوقدةٌ لغاية لا يجدها إلا في القرآن، فهو يقرأ القرآن لقصد وغاية لا يقر له قرار، ولا تستقيم له قراءة، ولا يهدأ له بال حتى يظفر بها.

ولا عجب أن يجد القلب راحته في تدبُّر القرآن، وتفهُّم ألفاظه ومقاصد آياته، فهو إنما يتذوق حلاوة المناجاة لكلام الخالق المحكم المفصل، كيف لا وهو يتسامى عن دنياه ويتصور المعاني ليحلق في آفاق الآيات، فربما يعيش لحظة مع معنىً قرآني تكلَّم به الله مشعراً به خلجات قلبه؛ فيجد لقلبه حياةً أخرى، ولقراءته طعماً، ولدعائه لذةً.

ثم يعيد القراءة فتتجدد له معان في قلبه لا يصفها لسانه، ولا يكتبها قلمه، ثم يستمر في القراءة فلا يحتمل قلبه الضعيف تدفق تلك المعاني الضخمة، ورهبة التأمل لروعة خطاب الرب، وعظمة التوجيه الإلهي، وثقل الأمانة التي طوتها حروف معدودة؛ فعندها ترق النفس وتصيبها السكينة، وتلفها الخشية والرهبة

والرغبة، ويعتريها البكاء والوجل، ثم يتجلىٰ للقلب من المعاني ما يشعره بالقرب من الله الكريم، فيطمئن القلب إلىٰ ذكر رحمة الرحيم الرحمن(١)، ويدرك عندها حاجته إلىٰ قراءة القرآن وتدبُّره، كلما طمح قلبه إلىٰ تلك الأحوال التي تفيض نوراً وروحاً وسكينة، ويدرك سر عظمة الأجر المترتب علىٰ قراءة كل حرف من كتاب الله.

إن أهل القرآن هم الذين وجدوا في القرآن شفاء قلوبهم، ودواء نفوسهم، ومنهل عقولهم، فلا إلىٰ غيره يردون، ولا من سواه يأخذون، ولا بدونه ينعمون، ولا بقراءته يسأمون، بل بلذيذ خطابه يفرحون، وبنفحاته ينعمون، فهو قرة قلوبهم، وريّ ظمئهم، فلا يذكرون حين التلذذ به تعباً، ولا يستثقلون بعده عبادة، ولا يجدون في قلوبهم بعده حرج من تكليف ولا تسخط من بلاء.

ثم ـ أيها القارئ الكريم ـ إن البحث في هذا الميدان مشاركة بجهد المقل، لعله يجدد للقارئ معارف وأحوالاً قد عرفها، أو لعله يعرّفه علىٰ أحوال جديدة، فيظفر قلبه بحياة جديدة مع القرآن، وسبيل لتدبره، ولذة وطعم لقراءته، وربما يجد القارئ إطالة في نقل بعض النصوص لسلفنا الصالح، وقد كان ذلك لإبقاء روح التأثير فيها؛ رجاء أن يدرك القارئ بكامل النص أموراً لا يجدها باجتزاء كلمات يسيرة من كلامهم.

هذا، وأتقدم بالشكر والتقدير لكل من أعان علىٰ إتمام البحث وتسديده.

وأسأل الله القدير أن ينفعنا بالقرآن، ويجعله ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وجلاء أحزاننا، وأن يجعله حجة لنا لا علينا، إنه هو السميع العليم.

رجب ١٤٢٢هـ

سلمان بن عمر السنيدي

الرياض ١١٥٦٣ ـ ص.ب ٥٢١٨٥

(١) ومصداق ذلك في قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

تمهيد

معنى التدبر في أصل اللغة:

هو النظر في عاقبة الأمر والتفكر فيه[١]. وتدبّر الكلام: النظر في أوله وآخره، ثم إعادة النظر مرة بعد مرة؛ ولهذا جاء على وزن التفعّل كالتجرّع والتفهّم والتبيّن؛ ولذلك قيل إنه مشتق من النظر في أدبار الأمور، وهي أواخرها وعواقبها. ومنه تدبر القول، كما في قوله - تعالى -: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨][٢].

معنى تدبر القرآن:

هو تفهُّم معاني ألفاظه، والتفكر فيما تدل عليه آياته مطابقةً، وما دخل في ضمنها، وما لا تتم تلك المعاني إلا به؛ مما لم يعرج اللفظ على ذكره من الإشارات والتنبيهات، وانتفاع القلب بذلك، بخشوعه عند مواعظه، وخضوعه لأوامره، وأخذ العبرة منه[٣].

قال الطبري - رحمه الله - في قوله - تعالى -: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]: «ليتدبروا حجج الله التي فيه، وما شرع الله فيه من الشرائع، فيتعظوا ويعملوا به»[٤].

---

(١) انظر: لسان العرب، ٤/ ٢٧٣؛ الفروق اللغوية، للعسكري، ص ٥٨؛ وكتاب التعريفات، للجرجاني، ص ٧٦؛ والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ٥/ ٢٩٠؛ وجامع البيان في تأويل القرآن، للطبري، ١/ ٨٧، ٥/ ١٨٠.

(٢) انظر: مفتاح دار السعادة، لابن القيم، ص ٢١٦.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير، ١/ ٥٠١؛ والتبيان في أقسام القرآن، لابن القيم، ص ١٤٥؛ وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص ١٥، وسورة غافر، تفسير الآية (٧)، ص ٧٣٣؛ والقواعد الحسان لتفسير القرآن له: القاعدة (١١)، ص ٢٨.

(٤) جامع البيان في تأويل القرآن، ٢٣/ ١٥٣.

وقال أبو بكر ابن طاهر: «تدبرْ في لطائف خطابه، وطالب نفسك بالقيام بأحكامه، وقلبك بفهم معانيه، وسرك بالإقبال عليه»(١).

ويقول الهروي ـ رحمه الله ـ: «أبنية التذكر ثلاثة: الانتفاع بالعظة، والاستبصار بالعبرة، والظفر بثمرة الفكرة»(٢).

ويستفاد من كلام العلماء في معنى التدبر: أن تدبر القرآن يشمل الأمور الآتية:

ـ معرفة معاني الألفاظ، وما يراد بها.

ـ تأمل ما تدل عليه الآية أو الآيات، مما يفهم من السياق أو تركيب الجمل.

ـ اعتبار العقل بحججه، وتحرك القلب ببشائره وزواجره.

ـ الخضوع لأوامره، واليقين بأخباره.

معاني المفردات المتعلقة بالتدبر:

وهي معان متقاربة تجتمع في شيء، وتفترق في آخر، منها المفردات الآتية:

الفهم: هو العلم بمعنى الكلام.

الفقه: هو العلم بمقتضى الكلام على تأمله؛ ولهذا تقول: تفقّه ما أقول. أي تأمله لتعرفه.

البصيرة: تكامل العلم(٣).

الفكر: هو إحضار معرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة.

التفكر: استعمال الفكرة في ذلك وإحضارها عنده.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، ١٩/ ٣٨.

(٢) مدارج السالكين، ١/ ٤٤٤ ـ ٤٤٩.

(٣) انظر: كتاب الفروق اللغوية، للعسكري، ص ٦٩، ٧٣.

التذكر: من الذكر وهو ضد النسيان؛ وهو حضور صورة المذكور العلمية في القلب، واختير له بناء (التفعل) لحصوله بعد مهلة وتدرج، كالتبصر والتفهم والتعلم، وهو إحضار العلم الذي يجب مراعاته بعد ذهوله وغيبته عنه، ومنه قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [**الأعراف**: ٢٠١].

فالتذكر يفيد تكرار القلب علىٰ ما علمه وعرفه ليرسخ فيه ويثبت، ولا ينمحي فيذهب أثره من القلب. والتفكر: يفيد تكثير العلم، واستجلاب ما ليس حاصلاً عند القلب، فالتفكر يحصله، والتذكر يحفظه، وكل من التذكر والتفكر له فائدة غير فائدة الآخر.

التأمل: مراجعة للنظر كرة بعد كرة، حتىٰ يتجلىٰ له وينكشف لقلبه، وتحديق ناظر القلب إلىٰ معانيه، وجمع الفكر علىٰ تدبره وتعقله[(١)].

الاعتبار: وهو من العبور؛ لأنه يعبر منه إلىٰ غيره، فيعبر من ذلك الذي قد فكر فيه إلىٰ معرفة ثالثة؛ ولهذا يسمَّىٰ (عبرة): وهي علىٰ بناء الحالات، كالجِلسة والقِتلة، إيذاناً بأن هذا العمل قد صار حالاً لصاحبه يعبر منه إلىٰ المقصود به، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [**النازعات**: ٢٦]، وقال ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾ [**آل عمران**: ١٣].

الاستبصار: وهو استفعال من التبصّر، وهو تبين الأمر وانكشافه، وتجليه للبصيرة[(٢)].

---

(١) انظر: مدارج السالكين، ١ / ٤٥١.

(٢) من أول كلمة (الفكر) إلىٰ آخر الكلمات، ذكر تلك المعاني ابن القيم ـ رحمه الله ـ في كتابه: (مفتاح دار السعادة)، ص ٢١٦، وقد نقلت بتصرف يسير.

المبحث الأول

أهمية تدبُّر القرآن

أهمية تدبر القرآن

تبرز أهمية تدبر القرآن الكريم في أمور كثيرة، وكل أمر كاف وحده أن يكون داعياً إلىٰ تدبر القرآن، والتأمل في معانيه، والتأثر عند قراءته، ولعل من أهمها الأمور الآتية:

أولاً: بركة القرآن:

وصف الله كتابه بأوصاف عظيمة؛ منها أنه كتاب عزيز مبارك، وأنه نور وفرقان، ورحمة وبرهان، وبصائر وشفاء، وهدىٰ وبشرىٰ، قال ـ سبحانه ـ: ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣]، وكثيراً ما يقرن الله هذه الأوصاف بالحث علىٰ التدبر والاعتبار والتذكر، قال ـ سبحانه ـ: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، والمعنىٰ: كتاب كثير الخير والبركة [(١)]. وقال عنه ـ سبحانه ـ: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦]، وقال ـ سبحانه ـ: ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٠٤]، ويقول ـ سبحانه ـ: ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١]. ويبين الآجري ـ رحمة الله عليه ـ بركة القرآن علىٰ العبد الذي أقبل علىٰ كتاب ربه بأدب واعتبار فيقول: «من تلا القرآن وأراد به متاجرة مولاه الكريم؛ فإنه يربحه الربح الذي لا بعده ربح، ويعرفه بركة المتاجرة في الدنيا والآخرة . . . قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ

---

(١) فتح القدير، للشوكاني، ٤/ ٤٣٠.

وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٢٩، ٣٠]»[١].

وبيَّن الرسول ﷺ أثر بركة القرآن وقوة تأثيره وتميزه عن باقي معجزات الأنبياء، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال ﷺ: «ما من نبي إلا أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»[٢].

ويصور الرسول ﷺ بركة القرآن على المؤمن الذي قرأ القرآن فتأثر به فيقول: «المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به كالأترجة طعمها طيب وريحها طيب. والمؤمن الذي لا يقرأ القرآن كالتمرة طعمها طيب ولا ريح لها ...»[٣]. ومن بركات القرآن أنواع هدايته؛ وذلك في قوله - تعالى -: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، يقول السعدي - رحمه الله -: «﴿أَقْوَمُ﴾: أي أكرم وأنفس وأصلح وأكمل استقامة، وأعظم قياماً وصلاحاً للأمور»[٤].

وأمام هذه الفضائل يقول ابن مفلح - رحمه الله - موجهاً حامل القرآن لشكر هذه النعمة العظيمة المباركة عليه: «أن يعتقد جزيل ما أنعم الله عليه إذ أهّلَهُ لحفظ كتابه، ويستصغر عَرَض الدنيا أجمع في جنب ما خوَّله الله تعالى، ويجتهد في شكره»[٥].

ثانياً: حاجة القلب إلى تدبر القرآن:

إن في القلب حاجة لا يسدها إلا ذكر الله والتلذذ بكريم خطابه، وإن فيه

(١) أخلاق حملة القرآن، ص ١٥، ١٦، ١٧.

(٢) رواه البخاري، رقم ٤٩٨١؛ ومسلم، رقم ١٥٢.

(٣) رواه البخاري بهذا اللفظ، رقم ٤٨٨٤، ٧٥٦٠؛ ومسلم، رقم ٧٩٧؛ وأبو داود، رقم ٤٨٣٠؛ والترمذي، رقم ٢٨٦٩؛ والنسائي، ٨/ ١٢٤.

(٤) القواعد الحسان، ص ١٤٥.

(٥) الآداب الشرعية، ٢/ ٣٠١.

وحشة لا يزيلها إلا الأنس بكتابه، وإن فيه قلقاً وخوفاً لا يؤمنه إلا السكون إلىٰ ما بشر الله به عباده، وإن فيه فاقة لا يغنيها إلا التزود من حِكَم القرآن وأحكامه، وإنه لعلىٰ حيرة واضطراب لا ينجيه منها ويهديه إلىٰ سواء الصراط إلا الاهتداء بنور ربه وبرهان كتابه العزيز. قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ** ﴾ [يونس: ٥٧ - ٥٨]. وإن العبد المؤمن مهما بلغ من العلم مكانةً ومن التقوىٰ منزلاً؛ فإنه لا يستغني عن القرآن مثبتاً وهادياً ومعيناً، وكيف يستغني والله يقول لنبيه: ﴿ **وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [هود: ١٢٠] ؟! ولذلك قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «وحاجة الأمة ماسّة إلىٰ فهم القرآن»[١] لصلاح قلوبها، وثباتها علىٰ الهدىٰ والدين.

والله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ حينما عاتب الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ في خشوع قلوبهم، والتأثر بكلامه حذَّرهم أن مغبة التمادي في هجر تدبر كتابه هي قسوة القلوب، فقال: ﴿ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾ [**الحديد**: ١٦]، قال محمد بن كعب ـ رحمه الله ـ: «كانت الصحابة بمكة مجدبين فلما هاجروا أصابوا الريف والنعمة، ففتروا عما كانوا فيه، فقست قلوبهم فوعظهم الله فأفاقوا»[٢]. والعتاب لعامة المؤمنين أحرىٰ وأولىٰ.

ويخبر ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عن الحالة التي ينتفع فيها القلب بالقرآن فيقول: «إن أقواماً يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، ولكن إذا وقع في القلب

(١) مقدمة في أصول التفسير، ص ٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، ١٦/ ٢٥٠.

فرسَخَ فيه نفع»[١]. ومصداق ذلك قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]، فالتدبر حال سماع القرآن يزيد القلب نوراً وإيماناً، قال جندب بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ: «كنا مع النبي ﷺ ونحن فتيان فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيماناً»[٢].

ورسوخ القرآن الكريم في القلب الذي يحصل به الانتفاع لا يكون ترديداً بارداً باللسان لا يحرك قلباً ولا يغير واقعاً، بل رسوخه بأمورٍ يبينها الآجري ـ رحمه الله ـ بقوله: «فالمؤمن العاقل إذا تلا القرآن استعرض القرآن، فكان كالمرآة يرىٰ بها ما حسن من فعله وما قبح فيه، فما حذَّره مولاه حذره وما خوَّفه به من عقابه خافه، وما رغّب فيه مولاه رغب فيه ورجاه؛ فمن كانت هذه صفته، أو ما قارب هذه الصفة فقد تلاه حق تلاوته، ورعاه حق رعايته، وكان له القرآن شاهداً وشفيعاً، وأنيساً وحرزاً؛ ومن كان هذا وصفه نفع نفسه ونفع أهله، وعاد علىٰ والديه وعلىٰ ولده كل خير في الدنيا والآخرة»[٣]، «وكان القرآن له شفاءً، فاستغنىٰ بلا مال، وعزَّ بلا عشيرة، وأنس مما يستوحش منه غيره، وكان همُّه عند التلاوة للسورة إذا افتتحها: متىٰ أتعظ بما أتلوه؟ ولم يكن مراده: متىٰ أختم السورة؟ وإنما مراده: متىٰ أعقل عن الله الخطاب، متىٰ أزدجر، متىٰ أعتبر؟ لأن تلاوة القرآن عبادة والعبادة لا تكون بغفلة»[٤].

قال النووي ـ رحمه الله ـ: «ينبغي للقارئ أن يكون شأنه الخشوع والتدبر والخضوع؛ فهذا هو المقصود المطلوب، وبه تنشرح الصدور، وتستنير القلوب،

---

(١) رواه مسلم، رقم ١٨٥٨؛ ونحوه البخاري، ٦ / ٢٣٨؛ وأبو داود، رقم ١٤٦٧.

(٢) رواه ابن ماجه، ص ٧؛ انظر: حياة الصحابة، ٣ / ١٧٦.

(٣) أخلاق حملة القرآن، ص ٤٠.

(٤) أخلاق حملة القرآن، ص ١٨.

ودلائله أكثر من أن تحصر، وأشهر من أن تذكر»(١).

وقال ـ سبحانه ـ في وصف قلوب الخاشعين: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]. فقوله: ﴿تَلِينُ﴾: أي ترق قلوبهم وتطمئن وتسكن(٢).

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر؛ فإنه جامع لجميع منازل السائرين، وأحوال العاملين، ومقامات العارفين، وهو الذي يورث المحبة والشوق والخوف الرجاء والإنابة والتوكل والرضا والتفويض والشكر والصبر، وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله، وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة التي بها فساد القلب وهلاكه. فلو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها. فإذا قرأه بتفكر حتى إذا مر بآية وهو محتاج إليها في شفاء قلبه، كررها ولو مائة مرة ولو ليلة، فقراءة آية بتفكر وتفهُّم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهُّم، وأنفع للقلب، وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن . . . فقراءة القرآن بالتفكر هي أصل صلاح القلب»(٣).

وقال ـ رحمه الله ـ: «فليس أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن، وإطالة التأمل، وجمع فيه الفكر على معاني آياته؛ فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر . . . وتثبت قواعد الإيمان في قلبه، وتشيد بنيانه، وتوطد أركانه . . . وتعطيه قوةً في قلبه، وحياةً، وسعةً، وانشراحاً، وبهجةً وسروراً، فيصير في شأن والناس في شأن آخر . . . فلا تزال معانيه تنهض بالعبد إلى ربه . . . وتثبت قلبه عن الزيغ والميل عن الحق . . . وتناديه كلما فترت

(١) الأذكار، ص ٩٠؛ والتبيان، ص ٦٠.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، ١٥/ ٢٥٠.
(٣) مفتاح دار السعادة، ص٢٢١.

عزماته وونى في سيره: تقدَّم الركب وفاتكَ الدليل . . . وفي تأمل القرآن وتدبره أضعاف أضعاف ما ذكرنا من الحِكَم والفوائد»(١).

ويبين حاجةَ القلب للقرآن الدعاءُ العظيمُ الذي يرويه ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «ما أصاب أحداً قط همٌّ ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيّ حكمك، عدلٌ فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو علَّمتَه أحداً من خلقك، أو أنزلتَه في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همّي؛ إلا أذهب الله همَّهُ وحزنه، وأبدله مكانه فرجاً». قال: فقيل: يا رسول الله! ألا نتعلمها؟ فقال: «بلى! ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها»(٢).

ولذلك قال مالك بن دينار: «ما زرع القرآن في قلوبكم يا أهل القرآن؟! إن القرآن ربيع المؤمن كما أن الغيث ربيع الأرض»(٣).

ولذلك قال إبراهيم الخواص: «دواء القلوب في خمسة ـ وذكر أولها ـ: قراءة القرآن بالتدبر»(٤).

«فإذا علم هذا علم افتقار كل مكلف لمعرفة معاني القرآن والاهتداء بها؛ كان

---

(١) مدارج السالكين، ١ / ٤٥١ ـ ٤٥٣.

(٢) رواه أحمد، ١ / ٣٩١؛ وأبو يعلى، ١/ ١٥٦؛ والطبراني في الكبير، ٣/ ١٧٤؛ وابن حبان، ٢٣٧٢؛ والحاكم ١ / ٥٠٩؛ وابن السني، ٣٣٥، وعنده أيضاً (٣٤٣) من رواية أبي موسى الأشعري؛ وحسَّن الحديث ابن حجر في تخريج الأذكار؛ وقال أبو الفضل البغدادي: حديث حسن عالي الإسناد؛ انظر: كتاب (الأذكار) تعليق المحقق، ص ١٠٤؛ وأقره شيخ الإسلام في الكلم الطيب، ١٢٣؛ وصححه ابن القيم في شفاء العليل (٢٧٤)؛ وصححه الألباني في الصحيحة ١٩٩؛ وصحيح الكلم الطيب، ص ١٠٢.

(٣) فن الترتيل، ص ٩، لعبد الله الصباغ.

(٤) التبيان، ص ٦١.

حقيقاً بالعبد أن يبذل جهده ويستفرغ وسعه في تعلُّمه وتفهُّمه، بأقرب الطرق الموصلة إلىٰ ذلك»(١).

ثالثاً: الثناء على من تدبر القرآن وتأثر به:

وردت آيات كثيرة في الثناء علىٰ من تأثر بكلام الله عز وجل، تحمل في طياتها صوراً وأحوالاً لتدبر القرآن الكريم والتأثر به، منها قوله ـ سبحانه ـ: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** ﴾ [الأنفال: ٢ - ٤]، وقال ـ سبحانه ـ: ﴿ **قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا** ﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩]، فيبكون بتأثير مواعظ القرآن في قلوبهم ومزيد خشوعهم، حيث ﴿ **يَزِيدُهُمْ** ﴾ سماع القرآن ﴿ **خُشُوعًا** ﴾: أي لين قلوب ورطوبة عين(٢). وقال ـ سبحانه ـ: ﴿ **اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ** ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ **إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا** ﴾ [مريم: ٥٨]، ومعنىٰ ﴿ **بُكِيًّا** ﴾: بكاء وحزن بلا صوت(٣). وقال ـ سبحانه ـ: ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا** ﴾ [الفرقان: ٧٣]، قال القرطبي ـ رحمه الله ـ: «فكانت حالهم ـ يعني رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم ـ عند المواعظ: الفهم عن الله، والبكاء خوفاً من الله؛ ولذلك وصف الله

(١) تفسير السعدي، ١٢.

(٢) انظر: فتح القدير، ٣/ ٢٦٤.

(٣) المرجع السابق، ٣/ ٣٣٩.

أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكر الله وتلاوة كتابه فقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣]، فهذا وصف حالهم وحكاية مقالهم . . . فمن كان مستناً فليستن»(١).

رابعاً: ذم من ترك تدبر القرآن ولم يتأثر به:

يقول الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ عمن يشتري لهو الحديث وبلغ الغاية في الإعراض عن آيات الله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٧]، ويقول القرطبي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ في قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]: «حثَّ علىٰ تأمل مواعظ القرآن، وبيّن أنه لا عذر في ترك التدبر، فإنه لو خوطب بهذا القرآن الجبال مع تركيب العقل فيها لانقادت لمواعظه ولرأيتها علىٰ صلابتها ورزانتها خاشعة متصدعة متشققة من خشية الله، وأنتم أيها المقهورون بإعجازه لا ترغبون في وعده ولا ترهبون من وعيده!»(٢).

وقد ذم الله في كتابه حال من هجر تدبر القرآن، ولم يفقه الآيات، ولم يدَّبر القول في صيغ مختلفة كقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: ٢٥]، وقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٦، ١٧]، وقوله ـ سبحانه ـ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]، قال الشنقيطي ـ رحمه الله ـ: «ما تضمنته الآية الكريمة من التوبيخ والإنكار علىٰ من أعرض عن كتاب الله؛ جاء موضحاً في آيات كثيرة . . . ومعلوم أن كل من لم يشتغل بتدبر آيات هذا القرآن العظيم ـ أي

(١) الجامع لأحكام القرآن، ٧ / ٣٦٦.
(٢) المرجع السابق، ١٨ / ٤٤.

تصفحها وتفهمها وإدراك معانيها والعمل بها ـ فإنه معرض عنها، غير متدبر لها، فيستحق الإنكار والتوبيخ المذكور في الآيات إن كان الله أعطاه فهماً يقدر به على التدبر . . . وهذه الآيات المذكورة تدل على أن تدبر القرآن وتفهمه وتعلمه والعمل به أمر لا بد منه للمسلمين . . . فإعراض كثير من الأقطار عن النظر في كتاب الله وتفهمه، والعمل به وبالسنة الثابتة المبينة له ـ من أعظم المناكر وأشنعها»[1]، وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقال ـ سبحانه ـ: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾ [الفرقان: ٣٠]. قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «وترك تدبره من هجرانه»[2]. وقال القرطبي في تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [النساء: ٨٢]: «عاب المنافقين بالإعراض عن التدبر في القرآن والتفكر فيه وفي معانيه»[3].

وفي وصف الخوارج من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال ﷺ: «يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم»[4]؛ أي أنهم يأخذون أنفسهم بقراءة القرآن وإقرائه وهم لا يتفقهون فيه ولا يعرفون مقاصده[5]، قال الزركشي ـ رحمه الله ـ: «ذمهم بإحكام ألفاظه وترك التفهم لمعانيه»[6]، وقال ابن حجر ـ رحمه الله ـ: (قال النووي ـ رحمه الله ـ: «المراد أنهم ليس لهم فيه حظ إلا مروره على لسانهم، لا يصل إلى حلوقهم فضلاً عن أن يصل إلى قلوبهم؛ لأن المطلوب تعقله وتدبره بوقوعه في القلب»)[7].

ويقول ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ: «قد رأيت رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل

---

(١) الأضواء، ٧/ ٤٢٨.
(٢) انظر: تفسير ابن كثير، ٦/ ١٠٨.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، ٥/ ٢٩٠.
(٤) رواه البخاري، رقم ٧٥٦٢؛ ومسلم، رقم ١٠٦٣، وفي رواية لحذيفة ـ رضي الله عنه ـ: «ولا تعيه قلوبهم».
(٥) انظر: الاعتصام، للشاطبي، ٢/ ٢٢٦.
(٦) البرهان، للزركشي، ١/ ٥٣٨.
(٧) فتح الباري، ١٢/ ٢٩٣.

الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته لا يدري ما آمره، ولا زاجره، وما ينبغي أن يقف عنده، ينثره نثر الدقل!»(١).

وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «لا تهذوا القرآن هذّ الشعر ولا تنثروه نثر الدقل؛ قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن همّ أحدكم آخر السورة»(٢).

ومثّل الله حال اليهود مع التوراة أقبح تمثيل فقال ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥]. قال الطرطوشي ـ رحمه الله ـ: «فدخل في عموم هذا من يحفظ القرآن من أهل ملتنا ثم لا يفهمه ولا يعمل به»(٣).

بل عدَّ كثير من العلماء أن من بدع القرَّاء القراءة بالهذرمة(٤)، وهي قراءة سريعة لا تدبر معها ولا فقه للمعاني ولا تأثر بالمواعظ، قال الطرطوشي ـ رحمه الله ـ: «مما ابتدعه الناس في القرآن الاقتصار على حفظ حروفه دون التفقه فيه»(٥).

خامساً: التدبر من النصح لكتاب الله:

عدّ العلماء تدبر القرآن وتفهُّم علومه من النصح لكتاب الله؛ وذلك لما ورد في حديث تميم الداري ـ رضي الله عنه ـ حيث قال: قال رسول الله ﷺ: «الدين النصيحة. قلنا: لمن؟ قال: لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط، ١/ ١٦٥؛ وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح، ١/ ١٦٥؛ انظر: حياة الصحابة، ٣/ ١٧٥.

(٢) رواه البغوي في تفسيره، ٤/ ٤٠٧؛ والبيهقي في شعب الإيمان، ١/ ٣٤٤؛ والآجري، ص ١٩؛ وعنه في الإتقان، ١/ ١٤٠، وروي مرفوعاً عن ابن عباس وعن علي بأسانيد واهية.

(٣) كتاب البدع والحوادث، ص ١٠١.

(٤) انظر: بدع القراء، للشيخ بكر أبو زيد، ص ١٥؛ وكذلك بدع القراء، لمحمد موسى، ص ٢١؛ وإصلاح المساجد، للقاسمي، ١٢٧؛ وانظر: معجم البدع، ص ٥١٩ (القرآن).

(٥) الحوادث والبدع، ٦٩ـ١٠١، عن معجم البدع، ص ٥٢٩.

وعامتهم»[١].

وقد عدَّ العلماء التدبر للقرآن والوقوف عند أحكامه والاعتبار بأمثاله من النصح له، وقد تنوعت عباراتهم في ذلك، فقد قال النووي ـ رحمه الله ـ في بيان النصح لكتابه: «قال العلماء ـ رحمهم الله ـ: النصيحة لكتاب الله ـ تعالىٰ ـ: هي الإيمان بأنه كلام الله تعالىٰ . . . ثم تعظيمه وتلاوته حق تلاوته، وتحسينها والخشوع عندها، وإقامة حروفه في التلاوة . . . والوقوف مع أحكامه، وتفهُّم علومه وأمثاله، والاعتبار بمواعظه، والتفكر في عجائبه، والعمل بمحكمه، والتسليم بمتشابهه، والبحث عن عمومه وخصوصه، وناسخه ومنسوخه، ونشر علومه، والدعاء إليه»[٢].

وقال ابن رجب ـ رحمه الله ـ: (أما النصح لكتاب الله: فشدة حبه وتعظيم قدره؛ إذ هو كلام الخالق، وشدة الرغبة في فهمه، وشدة العناية لتدبره، والوقوف عند تلاوته؛ لطلب معاني ما أحب مولاه أن يفهمه عنه، ويقوم به له بعد ما فهمه، وكذلك الناصح من العباد يفهم وصية من ينصحه . . . فكذلك الناصح لكتاب ربه، يُعنىٰ بفهمه، ليقوم لله بما أمر به كما يحب ويرضىٰ، ثم ينشر ما فهم في العباد، ويديم مدارسته بالمحبة له، والتخلق بأخلاقه، والتأدب بآدابه . . . وقال أبو عمرو ابن الصلاح ـ رحمه الله ـ: «والنصيحة لكتابه: الإيمان به، وتعظيمه، وتنزيهه، وتلاوته حق تلاوته، والوقوف مع أوامره ونواهيه، وتفهُّم علومه وأمثاله، وتدبر آياته، والدعاء إليه»[٣])[٤].

ومما يؤكد فضيلة تدبر القرآن، وفضيلة تدارس القرآن والاجتماع عليه؛

---

(١) رواه مسلم، ٢ / ٣٧، رقم ٥٥.

(٢) التبيان في آداب حملة القرآن، ص ١١٣؛ وقال نحو ذلك في المجموع، ٢ / ١٧٠.

(٣) صيانة صحيح مسلم، ص ٢٢٣، نقلاً عن تعليق محقق جامع العلوم والحكم، ١ / ٢٢٢.

(٤) جامع العلوم والحكم، ١ / ٢٢١؛ ونحو هذا المعنىٰ في معارج القبول، ٢ / ٧٨.

حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «ما اجتمع قوم يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم؛ إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفَّتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده. ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه»[1].

ولعل قوله ﷺ في الحديث: «من أبطأ به عمله...» إشارة إلى ترك الاجتماع على تلاوة القرآن وهجر تدارسه، وأنه مذموم، وصاحبه محروم من هذه الفضائل، بتفريطه في هذا العمل الجليل، ولن يسرع به نسبه ـ أو ما ملك من مفاخر الدنيا ـ ليدرك ما فاته من هذه الأجور العظيمة، والله أعلم.

(١) رواه مسلم، رقم ٢٦٩٩؛ والترمذي، رقم ٢٦٤٦؛ أبو داود، رقم ٣٦٤٣؛ وابن ماجه، رقم ٢٢٥؛ وأحمد، ٢/ ٢٥٢، ٤٠٧؛ وابن حبان، ٨٤.

المبحث الثاني

أمور شرعت من أجل تدبر القرآن والتأثر به

أمور شرعت من أجل تدبر القرآن والتأثر به

١- إنزال القرآن والتعبد بقراءته:

فقد قال الله - تعالى -: ﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ**﴾ [ص: ٢٩]، ولذلك يقول ابن القيم - رحمه الله -: «ولهذا أنزل الله القرآن ليتدبر ويتفكر فيه، ويعمل به؛ لا لمجرد التلاوة مع الإعراض عنه»(١). وقال - رحمه الله -: «تحديق ناظر القلب إلى معانيه، وجمع الفكر على تدبره وتعقله، هو المقصود من إنزاله، لا مجرد التلاوة بلا فهم ولا تدبر»(٢).

ويقول الشوكاني - رحمه الله -: «وفي الآية دليل على أن الله - سبحانه - إنما أنزل القرآن للتدبر والتفكر في معانيه، لا لمجرد التلاوة بدون تفكر»(٣).

٢- الترتيل والتغني بالقراءة وتحسينها:

لقوله - تعالى -: ﴿**وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً**﴾ [المزمل: ٤]، ولقوله ﷺ: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»(٤)، وعن ابن عباس - رضي الله عنه - قال: قال ﷺ: «أحسن الناس قراءة الذي إذا قرأ رأيت أنه يخشى الله»(٥). قال ابن كثير - رحمه الله -: «المطلوب شرعاً إنما هو التحسين بالصوت الباعث على تدبر القرآن وتفهُّمه، والخشوع والخضوع، والانقياد والطاعة»(٦)، ويقول القرطبي - رحمه

---

(١) مفتاح دار السعادة، ص ٢١٥.

(٢) مدارج السالكين، ١ / ٤٥١، بتصرف.

(٣) فتح القدير، ٤ / ٤٣٠.

(٤) أحمد، ١٤٧٦؛ والبخاري، رقم ٧٥٢٧؛ ومسلم، رقم ٧٩٢؛ وأبو داود، رقم ١٤٧٠؛ وابن ماجه، رقم ١٣٣٧.

(٥) صححه الألباني - رحمه الله -، انظر: السلسلة الصحيحة، ٤ / ١١١، رقم ١٥٨٣، وصحيح الجامع، رقم ١٩٤، ١ / ١٠٠؛ وصفة الصلاة، ص ١٢٥. وستأتي روايات أخرى ص ١١٥، هامش (٤).

(٦) فضائل القرآن، ص ١٢٥.

الله ـ: «الترتيل أفضل من الهذّ؛ إذ لا يصح التدبر مع الهذّ»(١)، وقال السيوطي ـ رحمه الله ـ: «تُسن القراءة بالتدبر والتفهُّم، فهو المقصود الأعظم، والمطلوب الأهم»(٢)، قال النووي ـ رحمه الله ـ: «قال العلماء: والترتيل مستحب للتدبر وغيره . . . لأن ذلك أقرب إلى التوقير والاحترام، وأشد تأثيراً في القلب»(٣). وقال ابن حجر ـ رحمه الله ـ: «الخشوع هو مقصود التلاوة»(٤)، ولما ذكر النووي ـ رحمه الله ـ من كره الألحان في القراءة قال: «لخروجها عما جاء القرآن له من الخشوع والتفهم»(٥).

٣ ـ صلاة الليل والقراءة فيه:

حيث قال ـ سبحانه ـ: ﴿**إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً**﴾ [**المزمل**: ٦]، قال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: «وقوله: ﴿**أَقْوَمُ قِيلاً**﴾: هو أجدر أن يفقه القرآن»(٦)، ويقول ابن حجر ـ رحمه الله ـ عن مدارسة جبريل لرسول الله ﷺ في كل ليلة من رمضان ـ: «المقصود من التلاوة الحضور والفهم؛ لأن الليل مظنة ذلك لما في النهار من الشواغل والعوارض الدنيوية والدينية»(٧).

وهناك من الشواهد ما يدل على اقتران قراءة القرآن بالليل؛ فمنها قوله ـ تعالى ـ: ﴿**يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ**﴾ [**آل عمران**: ١١٣]، وقوله ﷺ: «من نام عن حزبه فقرأ فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كتب له كأنما قرأه من الليل»(٨).

(١) الجامع لأحكام القرآن، ١٥/ ١٩٢.
(٢) الإتقان في علوم القرآن، ١ / ١٤٠.
(٣) التبيان، ص ٦٥.
(٤) الفتح، ٩ / ٩٢.
(٥) شرح النووي على مسلم، ٦ / ٨٠.
(٦) رواه أبو داود، رقم ١٣٠٤، وحسنه الألباني.
(٧) فتح الباري، ٩ / ٤٥.
(٨) رواه مسلم، ٧٤٧.

وقوله ﷺ عن شفاعة القرآن يوم القيامة لصاحبه: «فيقول القرآن منعته النوم بالليل»(١).

٤ ـ سلامة التلاوة وإتقان التجويد:

فقد قال ﷺ: «الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع الكرام السفرة»(٢)، وكونه ماهر به يشمل إتقانه للحفظ، وسلامة التلاوة، وإتقان التجويد. ومعلوم أن مبنى الكلام قائم على المعنى، ولا شك أن سلامة النطق تزيد الفهم، وتكمل الإدراك وتعين على التدبر. وإذا اختل النطق بالكلمة أو بإعرابها فإن المعنى يتغير أو يكون ناقصاً أو غير بيّن؛ وكل ذلك مما يبعد القلب عن التدبر وتفهُّم الآيات. قال السيوطي ـ رحمه الله ـ: «إن التحقيق(٣) يكون للرياضة والتعلم والتمرين، والترتيل يكون للتدبر والتفكر والاستنباط . . . وليس كل ترتيل تحقيقاً»(٤).

٥ ـ الاستعاذة:

حيث يقول ـ تعالى ـ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [**النحل**: ٩٨]، وثبت من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ كان إذا قام إلى الصلاة استفتح ثم يقول: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه»(٥)، ومعلوم أن الشيطان أحرص ما يكون على

---

(١) رواه أحمد، والبيهقي في شعب الإيمان، قال الهيثمي: إسناده حسن، فيض القدير، ٤ / ٢٥٢، وصححه الألباني في صحيح الجامع ١٧٧٦، وتخريج المشكاة ١٩٦٣، انظر: رهبان الليل، ١/ ١٦٩.

(٢) رواه البخاري، رقم ٤٩٣٧؛ ومسلم، رقم ٧٩٨؛ وأبو داود، رقم ١٤٥٤؛ والترمذي، رقم ٢٩٠٤؛ وابن ماجه، رقم ٣٧٧٩.

(٣) التحقيق: هو المأخوذ به في مقام التعليم ليرتاض اللسان على التلاوة السليمة. وقيل: إن مرتبة التحقيق لا تجوز إلا في مجال التعليم فقط. انظر: بغية المريد، للحرازي، ص ٧٩.

(٤) الإتقان، ١/ ١٣٢.

(٥) رواه أحمد، ٣/ ٥٠، والترمذي، ٢٤٢، وأبو داود، ٧٧٥، وابن ماجه، ٨٠٤، والنسائي، ٢/ ١٣٢، والدارمي، ١/ ٢٨٢، والدارقطني، ٢٠١، والبيهقي، ٢/ ٣٤، وقال عنه الترمذي: أشهر حديث في الباب. وصححه الألباني في صحيح الترمذي، ٢٠١.

الإنسان إذا تلا القرآن، ولهذا أمرَ ـ سبحانه ـ بالاستعاذة به من الشيطان عند قراءة القرآن، وفي ذلك فوائد[١]. وهي:

أ ـ أن القرآن شفاء لما في الصدور، فتكون الاستعاذة تنقية لما في القلب مما ألقىٰ الشيطان من الشرور.

ب ـ أن الملائكة تدنُو من قارئ القرآن وتستمع له، وتثبت القلب بالسكينة؛ والاستعاذة تطرد الشياطين.

ج ـ أن الشيطان يشغل القارئ، ويقبل عليه في الصلاة ـ وفي غيرها ـ بخَيْله ورَجله، فيحرص جهده علىٰ أن يحول بين القلب وبين مقصود القرآن، وهو تدبره وتفهُّمه والتأثر به، والاستعاذة تدفع ذلك.

د ـ أنه ما من رسول ولا نبي إذا قرأ القرآن إلا ألقىٰ الشيطان في قراءته، فهذا فعله مع الرسل فكيف بغيرهم؟ ولهذا فهو يُغالط القارئ، ويُنسيه ويشوش عليه لسانه، أو يشغل قلبه وذهنه أو يجمعهما له؛ ولهذا وغيره أُمِرَ بالاستعاذة.

هـ ـ أن الاستعاذة تمنع الشيطان من أن يفسد ما في القلب من الهدىٰ والنور والعلم والخير بتفهُّم القرآن وتدبره.

٦ـ الإنصات عند سماع القرآن:

لقوله ـ تعالىٰ ـ: **﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾** [**الأعراف**: ٢٠٤]، قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ: «أمرهم الله ـ سبحانه ـ بالاستماع للقرآن والإنصات له عند قراءته لينتفعوا به، ويتدبروا ما فيه من الحكم والمصالح»[٢].

---

(١) انظر تفصيلها وزيادة علىٰ ما ذكر في إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ١ / ١٠٩، لابن القيم ـ رحمه الله ـ.

(٢) فتح القدير، ٢ / ٢٨٠.

٧- الجهر بالتلاوة:

لتعين القارئ على جمع قلبه على المعاني، وتمنع شرود الذهن، فقد قال ﷺ: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن يجهر به»(١).

ولقد كان النبي ﷺ يفعل ذلك؛ فعن أم هانئ - رضي الله عنها - قالت: «كنت أسمع قراءة النبي ﷺ وأنا على عريشي»(٢)، وسُئل ابن عباس - رضي الله عنهما - عن جهر النبي ﷺ بالقراءة بالليل؛ فقال: «كان يقرأ في حجرته قراءةً لو أراد حافظ أن يحفظها فعل»(٣).

ومما يدل على العناية بالجهر بالقراءة ما رواه أبو قتادة - رضي الله عنه -: «أن النبي ﷺ خرج ليلة؛ فإذا بأبي بكر - رضي الله عنه - يصلي يخفض من صوته، ومرَّ على عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وهو يصلي رافعاً صوته، قال: فلما اجتمعا عند النبي ﷺ قال: يا أبا بكر، مررت بك وأنت تصلي تخفض من صوتك؟! قال: قد أسمعتُ من ناجيتُ يا رسول الله. وقال لعمر: مررت بك وأنت تصلي ترفع صوتك؟! فقال: يا رسول الله، أوقظ الوسنان وأطرد الشيطان. فقال النبي ﷺ: يا أبا بكر! ارفع من صوتك شيئاً. وقال لعمر: اخفض من صوتك شيئاً»(٤). وعن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل، وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار»(٥).

---

(١) رواه البخاري بهذا اللفظ، رقم ٧٥٢٧.
(٢) رواه النسائي، رقم ١٠١٣؛ ومختصر قيام الليل، ١٣٢؛ وحسنه الألباني في صحيح النسائي.
(٣) مختصر قيام الليل، للمروزي، ١٣٣.
(٤) رواه أبو داود، رقم ١٣٢٩؛ وصححه النووي في المجموع، ٣/ ٣٩١؛ والحاكم ووافقه الذهبي، والألباني في صفة صلاة النبي ﷺ، ص ١٠٩.
(٥) رواه البخاري، رقم ٤٢٣٢؛ ومسلم، رقم ٢٤٩٩.

وعن عقبة بن عامر - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة، والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة»[(١)].

قال القرطبي - رحمه الله -: «وأجازت طائفة رفع الصوت بالقرآن والتطريب به؛ وذلك لأنه إذا حسن الصوت به كان أوقع في النفوس، وأسمع في القلوب»[(٢)].

قال الزركشي - رحمه الله -: «ويستحب الجهر بالقراءة... نَعَم؛ من قرأ والناس يصلون فليس له أن يجهر جهراً يشغلهم به؛ فإن النبي ﷺ خرج على أصحابه وهم يصلون في المسجد فقال: يا أيها الناس، كلكم يناجي ربه، فلا يجهر بعضكم على بعض في القراءة[(٣)]»[(٤)].

وقال النووي - رحمه الله - عن الحكمة من مشروعية الجهر: «أنه يتعدى نفعه إلى غيره، ويوقظ القلب، ويجمع همَّه إلى الفكر، ويصرف سمعه إليه»[(٥)].

٨ - حسن الابتداء والوقف:

يقول النووي - رحمه الله -: «وينبغي للقارئ إذا بدأ من وسط السُّور، أو وقف على غير آخرها؛ أن يبتدئ من أول الكلام المرتبط بعضه ببعض، وأن يقف

---

(١) رواه الترمذي، رقم ٢١١٩، وقال: حديث حسن غريب؛ وصححه الألباني في صحيح الترمذي؛ ورواه أبو داود، رقم ١٣٣٣؛ والنسائي، ٥ / ٨٠؛ وأحمد، ٤ / ١٥١، ١٥٨، والبيهقي في الكبرى، ٣ / ١٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ١ / ١١.

(٣) أخرجه أحمد، ٢ / ٦٧، بلفظ: «إن المصلي يناجي ربه - عز وجل - فلينظر أحدكم بما يناجي ربه، ولا يجهر بعضكم على بعض بالقراءة»، وأخرجه أبو داود، أبواب قيام الليل، باب: رفع الصوت بالقراءة في صلاة الليل، رقم ٣١٥.

(٤) البرهان، للزركشي، ١ / ٥٤٧.

(٥) التبيان، ص ٧٦.

على الكلام المرتبط، ولا يتقيد بالأعشار والأجزاء؛ فإنها قد تكون في وسط الكلام، كالجزء الذي في قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٢٤]، . . . ولا يغتر بكثرة الفعالين له من القرَّاء الذين لا يرعون هذه الآداب، ولا يفكرون في هذه المعاني؛ . . . ولهذا المعنى قال العلماء: قراءة سورة قصيرة بكاملها أفضل من قراءة بعض سورة طويلة بقدر القصيرة، فإنه قد يخفى الارتباط على بعض الناس في بعض الأحوال[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ذلك من المصلحة العظيمة بقراءة الكلام المتصل بعضه ببعض، والافتتاح بما فتح الله به السورة، والاختتام بما ختم الله به، وتكميل المقصود من كل سورة، ما ليس في ذلك التحزيب»[٢].

«وأعدل الأقوال في ذلك، قول من كره اعتياد ذلك دون فعله أحياناً؛ لئلا يخرج عما مضت به السنَّة، وعادة السلف من الصحابة والتابعين»[٣].

(١) التبيان، ص ٨٢؛ والأذكار، ص ٩١؛ ونحوه في المجموع، ٢/ ١٦٧.
(٢) الفتاوى، ١٣/ ٤٠٥ ـ ٤١٤، وذكر أن أول من أحدث الأعشار والأخماس الحجاج بن يوسف. وانظر: كتاب الحوادث والبدع، ص ١٠٣.
(٣) الفتاوى، ١٣/ ٤١٢.

المبحث الثالث

أمور متوقفة على تدبر القرآن وفهم معانيه

أمور متوقفة على تدبر القرآن وفهم معانيه

هناك مصالح كثيرة مترتبة ومتوقفة على تدبر القرآن، فإذا وجدت رُجي حصولها، وإذا فقد التدبر امتنع حصولها أو يكاد، أو قلّ نفعها أو ضعف شأنها، أو كان فضلها يدور مع التدبر وجوداً وعدماً، ولذلك قال ﷺ: «إذا قام أحدكم من الليل فاستعجم القرآن على لسانه فلم يدر ما يقول فليضطجع»(١). ومن هذه الأمور ما يأتي:

١ـ عظم أجر التلاوة:

فإن أجر التلاوة يُرجى بأداء التلاوة، ولكن عظم الأجر يرجى بمزيد التدبر والاعتبار بما يتلوه القارئ، قال النووي ـ رحمه الله ـ: «اعلم أن التلاوة أفضل الأذكار، والمطلوب القراءة بفهم»(٢). وقال ابن حجر ـ رحمه الله ـ: «فإن من رتل وتأمل كمن تصدَّق بجوهرة واحدة ثمينة، ومن أسرع كمن تصدَّق بعدة جواهر لكن قيمتها قيمة الواحدة، وقد تكون قيمة الواحدة أكثر من قيمة الأخريات، وقد يكون العكس»(٣).

وقال السيوطي ـ رحمه الله ـ: «وأحسن بعض أئمتنا فقال: إن ثواب قراءة الترتيل أجل قدراً، وثواب الكثرة أكثر عدداً»(٤)، وقال عن إعراب القرآن: «المراد بإعرابه: معرفة معاني ألفاظه، وليس المراد الإعراب المصطلح عليه عند النحاة وهو ما يقابل اللحن؛ لأن القراءة مع فقده ليست قراءة، ولا ثواب فيها»(٥).

---

(١) رواه مسلم رقم، ٧٨٧؛ وأبو داود، رقم ١٣١١؛ والبيهقي، ٣/ ١٦، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) الأذكار، ص ٨٥.

(٣) الفتح، ٩/ ٨٩.

(٤) الإتقان، ١/ ١٤٠.

(٥) المرجع السابق، ١/ ١٤٩.

وقال ابن الجزري ـ رحمه الله ـ: «والصحيح بل الصواب ما عليه معظم السلف؛ وهو أن الترتيل والتدبر مع قلة القراءة أفضل من السرعة مع كثرتها»(١).

٢ـ حصول بركة القرآن وانتفاع القلب به:

وفي ذلك يقول الآجري ـ رحمه الله ـ: «وإن الله وعد لمن استمع كلامه فأحسن الأدب عند استماعه، بالاعتبار الجميل، ولزوم الواجب لاتباعه، والعمل به؛ ببشرىٰ منه بكل خير، ووعده علىٰ ذلك أفضل الثواب، فقال ـ عز وجل ـ: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨]، . . . سمعوا الله يقول: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، فكان حسن استماعهم يبعثهم علىٰ التذكر فيما لهم وعليهم»(٢).

قال شيخ الإسلام: «ومن أصغىٰ إلىٰ كلام الله وكلام رسوله ﷺ بعقله، وتدبره بقلبه، وجد فيه من الفهم والحلاوة والهدىٰ وشفاء القلوب والبركة والمنفعة ما لا يجده في شيء من الكلام؛ لا منظومه ولا منثوره»(٣).

ويقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «سماع القرآن بالاعتبارات الثلاثة: إدراكاً وفهماً، وتدبراً، وإجابة؛ . . . لن يعدم من اختار هذا السماع إرشاداً لحجة، وتبصرةً لعبرة، وتذكرةً لمعرفة، وفكرةً في آية، ودلالةً علىٰ رشد، . . . وحياةً لقلب، وغذاءً ودواءً وشفاءً، وعصمةً ونجاةً، وكشفَ شبهة»(٤).

ومن هجر التدبر فقد حرم نفسه خيرات كثيرة؛ فقد قال علي ـ رضي الله عنه ـ: «لا خير في عبادة لا علم فيها، ولا علم لا فقه فيه، ولا قراءة لا تدبر فيها»(٥).

---

(١) النشر، لابن الجزري، ١/ ٢٩٧.
(٢) أخلاق حملة القرآن، ص ١٧.
(٣) اقتضاء الصراط المستقيم، ص ٣٨٤، الطبعة الثانية، السنة المحمدية.
(٤) مدارج السالكين، ١ / ٤٨٤.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، ١٤ / ٣٤٤.

٣- التفضيل بين القراءة من المصحف والقراءة عن ظهر قلب :

فإن هذا منوط بالتدبر ، قال النووي - رحمه الله - في ذلك : «ولو قيل : إنه يختلف باختلاف الأشخاص ، فيختار القراءة في المصحف لمن استوىٰ خشوعه وتدبره في حالتي القراءة في المصحف وعن ظهر قلب ، ويختار القراءة عن ظهر قلب لمن يكمل بذلك خشوعه ، ويزيد علىٰ خشوعه وتدبره لو قرأ من المصحف ؛ لكان هذا قولاً حسناً ، والظاهر أن كلام السلف وفعلهم محمول علىٰ هذا التفصيل»(١) .

٤ - التفضيل بين القراءة في الصلاة والقراءة خارجها :

يقول في ذلك شيخ الإسلام - رحمه الله - : «الصلاة أفضل من القراءة في غير الصلاة ، ولكن من حصل له نشاط وفهم للقراءة دون الصلاة ؛ فالأفضل في حقه ما كان أنفع له»(٢) .

٥ - التفضيل بين الجهر بالقراءة والإسرار بها :

يقول النووي - رحمه الله - : «جاءت آثار بفضيلة رفع الصوت بالقراءة وآثار بفضيلة الإسرار ، قال العلماء : والجمع بينهما أن الإسرار أبعد من الرياء ، فهو أفضل في حق من يخاف ذلك ، فإن لم يخف الرياء فالجهر أفضل ، بشرط أن لا يؤذي غيره من مصلٍّ أو نائم أو غيرهما . ودليل فضيلة الجهر أن العمل فيه أكثر ، ولأنه يتعدىٰ نفعه إلىٰ غيره ، ولأنه يوقظ القلب ويجمع همَّه إلىٰ الفكر ، ويصرف سمعه إليه» - إلىٰ أن قال - : «فمتىٰ حضره شيء من هذه النيات فالجهر أفضل»(٣) .

---

(١) التبيان ، ص ٧١ ؛ ومثله في الأذكار ، ص ٩١ ؛ وانظر : الإتقان ، ١ / ١٤٢ ، فقد نقل قول ابن عبد السلام في تعليله تفضيل القراءة من الحفظ : «لأن فيه من التدبر ما لا يحصل بالقراءة في المصحف» . ولمزيد تفصيل ينظر فتح الباري ، باب القراءة عن ظهر القلب ، ٩/ ٧٨ .

(٢) الفتاوىٰ ، ٢٣ / ٦٣ .

(٣) الأذكار ، ص ٩١ ؛ وفي التبيان مزيد تفصيل ، ص ٧٦ ؛ ونحوه في المجموع ، ٢ / ١٦٦ .

٦ ـ ترتيب أولويات طلب العلوم:

فإن قراءة القرآن بلا تدبر قد تكون مفضولة، ومع التدبر تكون مقدمة لأنها أنفع لطالب العلم، وقد سئل شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ عمن يحفظ القرآن أيما أفضل له: تلاوة القرآن مع أمن النسيان، أو التسبيح وما عداه؟ فأجاب: «الواحد من هؤلاء يجد في الذكر من اجتماع قلبه، وقوة إيمانه، واندفاع الوساوس عنه، ومزيد السكينة والنور والهدىٰ ما لا يجده في قراءة القرآن، بل إذا قرأ القرآن لا يفهمه أو لا يحضر قلبه وفهمه، . . . كما أن من الناس من يجتمع قلبه في قراءة القرآن وفهمه وتدبره ما لا يجتمع في الصلاة. وليس كل ما كان أفضل يشرع لكل أحد، بل كل واحد يشرع له أن يفعل ما هو أفضل له»[١].

وسئل ـ رحمه الله ـ عن تكرار القرآن والفقه: أيهما أفضل وأكثر أجراً؟ فأجاب: «كلام الله لا يقاس به كلام الخلق، . . . وأما الأفضل في حق الشخص: فهو بحسب حاجته ومنفعته؛ فإن كان يحفظ القرآن وهو محتاج إلىٰ تعلُّم غيره، فتعلمه ما يحتاج إليه أفضل من تكرار التلاوة التي لا يحتاج إلىٰ تكرارها، وكذلك إن كان حفظ من القرآن ما يكفيه وهو محتاج إلىٰ علم آخر، وكذلك إن كان قد حفظ القرآن أو بعضه، وهو لا يفهم معانيه فتعلمه لما يفهمه من معاني القرآن أفضل من تلاوة ما لا يفهم معانيه. وأما من تعبد بتلاوة الفقه فتعبده بتلاوة القرآن أفضل، وتدبره لمعاني القرآن أفضل من تدبره لكلام لا يحتاج لتدبره»[٢].

٧ـ قصر المدة التي يختم فيها القرآن:

فإن فضيلتها مترتبة علىٰ فهم القرآن، وتدبره، وتأثر القلب به.

وحينما سئل زيد بن ثابت: كيف ترىٰ في قراءة القرآن في سبع؟ قال:

(١) الفتاوىٰ، ٢٣ / ٥٦ ـ ٦٣، وقد ضرب ـ رحمه الله ـ شواهد تدلل علىٰ ما قرره.
(٢) الفتاوىٰ، ٢٣ / ٥٥.

«حسن، ولأن أقرأه في نصف شهر أو عشر أحب إليّ. وسلني: لم ذاك؟» قال: فإني أسألك؟ قال زيد: «لكي أتدبره وأقف عليه»(١).

وقال سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز ـ رحمه الله ـ عن قراءة الإمام في صلاة التراويح: «ليس المهم أن يختم، وإنما المهم أن ينتفع الناس في صلاته، وفي خشوعه، وفي قراءته؛ حتىٰ يستفيدوا ويطمئنوا . . . لأن عنايته بالناس، وحرصه علىٰ خشوعهم، وعلىٰ إفادتهم أهم من كونه يختم»(٢). «وليس هذا موجباً لأن يتعجل، ولا يتأنىٰ في قراءته، ولا يتحرىٰ الخشوع والطمأنينة، بل يتحرىٰ هذه الأمور أولىٰ من مراعاة الختمة»(٣).

(١) أخرجه مالك في الموطأ، ١ / ٢٠١.
(٢) الجواب الصحيح من أحكام صلاة الليل والتراويح، ص ١٢.
(٣) المرجع السابق، ص ١٤. ولمزيد من التفصيل ينظر فقرة (مدة ختم القرآن)، ص ١١٩.

المبحث الرابع

صوارف تحول دون التدبر

صوارف تحول دون التدبر

١ ـ أمراض القلوب والإصرار على الذنوب :

وهي من أعظم ما يصد القارئ عن اتعاظ قلبه وانشراح صدره لمواعظ القرآن وحِكَمه وأحكامه. وفي هذا يقول الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦] ، قال ابن قدامة ـ رحمه الله ـ: «وليتخل التالي عن موانع الفهم، ومن ذلك أن يكون مصراً على ذنب أو متصفاً بكبر أو مبتلى بهوى مطاع، فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصدئه، فالقلب مثل المرآة، والشهوات مثل الصدأ، ومعاني القرآن مثل الصور التي تتراءى في المرآة، والرياضة للقلب بإماطة الشهوات مثل جلاء المرآة»[١] .

قال الزركشي ـ رحمه الله ـ: «اعلم أنه لا يحصل للناظر فهم معاني الوحي، ولا يظهر له أسراره وفي قلبه بدعة أو كبر أو هوى أو حب الدنيا أو هو مصر على ذنب، أو غير متحقق بالإيمان أو ضعيف التحقيق أو يعتمد على مفسر ليس عنده علم أو راجع إلى معقوله، وهذه كلها حجب وموانع بعضها آكد من بعض»[٢] .

وإن من أعظم المعاصي التي تصد القلب عن تدبر القرآن تعلقه بشهوات الدنيا؛ فإن القلب لا يمكنه أن يسمو إلى المعالي وعظيم الفضائل، ويشتاق ويطمئن إلى كلام الله، وهو يعيش مع الجيف والنتن وسفاسف الهمم التي تحوم عليها همم الفساق وأراذل الناس، ومن صور ذلك سماع الأغاني والتلذذ بكلماتها.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في نونيته عن أثر سماع الأغاني على القلب والإيمان :

---

(١) مختصر منهاج القاصدين، ٦٧ ـ ٦٨ .

(٢) البرهان في علوم القرآن، ٢ / ١٩٧ .

والله إن سماعهم في القلب والإيمان؛ مثل السم في الأبدانِ
فالقلب بيت الرب جل جلاله حباً وإخلاصاً مع الإحسانِ
فإذا تعلق بالسماع أحاله عبداً لكل فلانة وفلانِ
حُبُّ الكتاب وحُبُّ ألحان الغنا في قلب عبد ليس يجتمعانِ[١]

٢ ـ انشغال القلب وشرود الذهن:

فإنه يصرف عن تدبر القرآن والتأثر به لغفلة القلب، ولو كان قلبه حياً لكنه مشغول عنه بغيره، فهو غائب القلب ليس حاضراً؛ فهذا لا تحصل له الذكرىٰ مع استعداده ووجود قلبه، ومثله البصير الطامح ببصره إلىٰ غير المطلوب[٢].

ومن أكثر الشواغل التي تذكر حين التلاوة أن يكون همّ القارئ إتمام السورة دون أن يكون همه الفهم والاتعاظ والعبرة التي تحويها الآيات.

ولهذا قال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ: «يا ابن آدم، كيف يرق قلبك وإنما همتك في آخر السورة؟!»[٣].

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «الناس ثلاثة: رجل قلبه ميت . . . الثاني: رجل له قلب حي . . . لكنه مشغول ليس بحاضر؛ فهذا أيضاً لا تحصل له الذكرىٰ. والثالث: رجل حي القلب مستعد، تليت عليه الآيات فأصغىٰ بسمعه وألقىٰ السمع، وأحضر القلب، ولم يشغله بغير فهم ما يسمع، فهو شاهد القلب، فهذا القسم هو الذي ينتفع بالآيات»[٤]. ويقول ـ رحمه الله ـ: «فإذا

---

(١) من القصيدة النونية، لابن القيم، فصل في سماع أهل الجنة، انظر القصيدتين النونية والميمية، ص ٢٢٤.

(٢) انظر: مدارج السالكين، ١ / ٤٤٢؛ حيث ذكر ابن القيم ـ رحمه الله ـ أن هذه الحالة بين من قلبه ميت، وبين من قلبه حي مستعد.

(٣) مختصر قيام الليل، للمروزي، ص ١٥٠. وقد نبه إلىٰ هذا الأمر عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ، انظر: ص ٢٤، وكذلك الآجري ـ رحمه الله ـ، انظر: ص ١٨، ص ١٠٢.

(٤) مدارج السالكين، ١ / ٤٤٢.

حصل المؤثر: وهو القرآن. والمحل القابل: وهو القلب الحي. ووجد الشرط: وهو الإصغاء. وانتفى المانع: وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب، وانصرافه عنه إلى شيء آخر؛ حصل الأثر: وهو الانتفاع والتذكر»[١].

٣ ـ قصر الخشوع على أحوال أو آيات معيَّنة:

فمن الناس من يقصر الخشوع في رمضان، أو في القنوت، أو عند خشوع الإمام، أو عند آيات العذاب وذكر النار وأهوال القيامة. ومعلوم أن أسباب الخشوع ودواعيه متعددة؛ ففعله ﷺ عند التلاوة فيه خشوع وتدبر؛ فهو ينزه ويسبح عند آيات الأسماء والصفات، ويسأل الله من فضله عند ذكر جنته وإنعامه وفضله ورحمته، ويستعيذ عند ذكر النار والعذاب[٢].

ويذكر ابن القيم ـ رحمه الله ـ أنواعاً شتى يحصل عندها الخشوع والتأثر بالقرآن، فيقول في ذلك: «الشهقة التي تعرض عند سماع القرآن أو غيره لها أسباب:

أحدها: أن يلوح له عند السماع درجة ليست له فيرتاح إليها؛ فتحدث له شهقة شوق.

ثانيها: أن يلوح له ذنب ارتكبه؛ فتحدث له شهقة خوف وخشية.

ثالثها: أن يلوح له نقص فيه لا يقدر على دفعه عنه؛ فيُحدث له ذلك شهقة حزن وندم.

رابعها: أن يلوح له كمال صفات خالقه، ويرى الطريق إليه مسدوداً عنه؛ فيحدث له شهقة أسف وحسرة.

خامسها: أن يكون قد انشغل عن ربه، واشتغل بغير ذكره فيُذكِّره القرآن ربَّه

(١) كتاب الفوائد، ص ١.

(٢) ينظر شواهد ذلك: ص ١٢٥.

فيلوح له جماله ويرىٰ بابه مفتوحاً، والطريق ظاهراً؛ فيحدث له شهقة فرح وسرور.

وبكل حال فسبب الشهقة قوة الواردات علىٰ القلب من المعاني العظيمة، وضعف القلب عن تحملها، والقصور فيما تستحقه من تعظيم، وما يلزمها من أعمال. والخير أن تعمل تلك الواردات في باطنه داخلاً، وذلك أقوىٰ له وأدوم، فإن أظهره[١] ضعف أثره وأوشك انقطاعه. هذا حكم الشهقة من الصادق، فإن الشاهق إما صادق أو موافق[٢] أو منافق»[٣].

٤ ـ ترك التدبر تورعاً عن القول في كلام الله بغير علم:

والاعتقاد أن مهمة القارئ تنحصر في القراءة دون التدبر والتأمل، تاركاً التأمل والنظر في المعنىٰ للعلماء والمفسرين، فيصرف القارئ همته إلىٰ كثرة القراءة وسلامة التلاوة، يقول عن ذلك ابن هبيرة ـ رحمه الله ـ: «ومن مكايد الشيطان: تنفيره عباد الله من تدبر القرآن؛ لعلمه أن الهدىٰ واقع عند التدبر، فيقول: هذه مخاطرة، حتىٰ يقول الإنسان: أنا لا أتكلم في القرآن تورعاً»[٤]. ولذلك قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «ومن قال: إن له تأولاً لا نفهمه ولا نعلمه، وإنما نتلوه متعبدين بألفاظه؛ ففي قلبه منه حرج»[٥].

وقال الشاطبي ـ رحمه الله ـ: «فمن حيث كان القرآن معجزاً أفحم الفصحاء

---

(١) لمعرفة أحوال من يصعق ويغشىٰ عليهم وأحكامها، انظر: الآداب الشرعية، لابن مفلح: ٢/ ٣٠٥؛ والجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ٧/ ٣٦٦.

(٢) ومن ذلك ما يروىٰ: أن عبد الله بن رواحة ـ رضي الله عنه ـ بكىٰ فبكت امرأته، فقال لها: «ما يبكيك؟ قالت: أبكاني الذي أبكاك. قال: أبكاني أني وارد النار؛ فلا أدري أناج منها أم لا؟»، مختصر قيام الليل، ١٤٤.

(٣) بتصرف من كتاب الفوائد، ص ١٩٨؛ وعن أنواع البكاء انظر: زاد المعاد، ١/ ١٨٤.

(٤) ذيل طبقات الحنابلة، لابن رجب ـ رحمه الله ـ، ٣/ ٢٧٣.

(٥) التبيان في أقسام القرآن، ص ١٤٤، فصل ٦٠.

وأعجز البلغاء أن يأتوا بمثله ؛ فذلك لا يخرجه عن كونه عربياً جارياً على أساليب كلام العرب، ميسراً للفهم فيه عن الله ما أمر به ونهى، لكن بشرط الدربة في اللسان العربي . . . إذ لو خرج بالإعجاز عن إدراك العقول لمعانيه لكان خطابهم به من تكليف ما لا يطاق، وذلك مرفوع عن الأمة. وهذا من جملة الوجوه الإعجازية فيه؛ إذ من العجب إيراد كلام من جنس كلام البشر في اللسان والمعاني والأساليب، مفهوم معقول، ثم لا يقدر البشر على الإتيان بسورة مثله . . . وقد قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧] . . . وعلى أي وجه فرض إعجازه؛ فذلك غير مانع من الوصول إلى فهمه وتعقل معانيه، ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، فهذا يستلزم إمكان الوصول إلى التدبر والتفهم»[(١)].

قال الشنقيطي ـ رحمه الله ـ: «قول متأخري الأصوليين: إن تدبر القرآن العظيم وتفهمه والعمل به لا يجوز إلا لمجتهد خاصة . . . قول لا مستند له من دليل شرعي أصلاً، بل الحق الذي لا شك فيه أن كل من له قدرة من المسلمين على التعلم والتفهم، وإدراك معاني الكتاب والسنة؛ يجب عليه تعلمهما، والعمل بما علم منهما . . .

ومما يوضح ذلك أن المخاطبين الأولين به الذين نزل فيهم هم المنافقون والكفار، وليس أحد منهم مستكملاً لشروط الاجتهاد المقررة . . . فلو كان القرآن لا يجوز أن ينتفع بالعمل به والاهتداء بهديه إلا المجتهدون بالاصطلاح الأصولي لما وبخ الله الكفار وأنكر عليهم عدم الاهتداء بهداه، ولما أقام عليهم الحجة به . . .». ثم فصل ـ رحمه الله ـ القول في الرد على من قال بذلك[(٢)].

---

(١) الموافقات، ٣/ ٨٠٥.

(٢) حيث ذكر ـ رحمه الله ـ في تفسيره، ٧ / ٤٤٧ ، مقالة أحمد الصاوي في حاشيته على الجلالين، وأفاض ـ رحمه الله ـ في بيان بطلان كلامه بما يشفي ويكفي.

ثم قال ـ رحمه الله ـ: «فالقول بمنع العمل بما علم من الكتاب والسنة حتى يحصل رتبة الاجتهاد المطلق؛ هو عين السعي في حرمان جميع المسلمين من الانتفاع بنور القرآن. . . يجب على كل مسلم يخاف العرض على ربه يوم القيامة أن يتأمل فيه ليرى لنفسه المخرج من هذه الورطة العظمى والطامة الكبرى التي عمت جل بلاد المسلمين من المعمورة: وهي ادعاء الاستغناء عن الكتاب وسنة رسوله استغناء تاماً في جميع الأحكام من عبادات، ومعاملات، وحدود وغير ذلك بالمذاهب المدونة، وبناء ذلك على مقدمتين:

أحدهما: أن العمل بالكتاب والسنة لا يجوز إلا للمجتهدين.

والثانية: أن المجتهدين معدومون.

فإن كان قصدهم أن الكتاب والسنة لا حاجة إلى تعلمهما، وأنهما يغني عنهما غيرهما؛ فهذا بهتان عظيم، ومنكر من القول وزور. وإن كان قصدهم أن تعلمهما صعب لا يُقدر عليه فهو أيضاً زعم باطل؛ لأن تعلم الكتاب والسنة أيسر من تعلم مسائل الآراء والاجتهاد المنتشرة، مع كونها في غاية التعقيد والكثرة، والله يقول ـ جل وعلا ـ في سورة القمر مرات متعددة: ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ**﴾. . . فهو كتاب ميسر، بتيسير الله لمن وفقه الله للعمل به. . .

ولا شك أن هذا القرآن العظيم، هو النور الذي أنزله الله إلى الأرض ليستضاء به. . . قال ـ تعالى ـ: ﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا**﴾ [الشورى: ٥٢]. . .

ولتعلم أن كتاب الله وسنة رسوله في هذا الزمان أيسر منه بكثير في القرون الأولى؛ لسهولة معرفة جميع ما يتعلق بذلك. . . فكل آية من كتاب الله قد علم ما جاء فيها من النبي ﷺ، ثم من الصحابة والتابعين وكبار المفسرين»(١).

(١) أضواء البيان، ٧/ ٤٣٠، ٤٣٧.

ويجتهد الصنعاني - رحمه الله - في بيان حجج يردُّ بها على من سلك هذا المسلك، وملخص ما قال: «إن الله - سبحانه - كمَّل عقول العباد، ورزقهم فهم كلامه. ثم إن فهم كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية عند قرعها الأسماع لا يحتاج في معناها إلى علم النحو، ولا إلى علم الأصول، بل في الأفهام والطباع والعقول ما يجعلها تسارع إلى معرفة المراد؛ فإن من قرع سمعه قوله - تعالى -: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٠]، يفهم معناه من دون أن يعرف أن (ما) كلمة شرط، و(تقدموا) مجزوم بها لأنه شرطها، و(تجدوه) مجزوم بها لأنه جزاؤها، ومثلها كثير. ثم إنك ترى العامة يستفتون العالم ويفهمون كلامه وجوابه وهو كلام غير معرب في الأغلب، بل تراهم يسمعون القرآن فيفهمون معناه ويبكون لقوارعه وما حواه، ولا يعرفون إعراباً، ولا غيره، بل ربما كان موقع ما يسمعونه في قلوبهم أعظم من موقعه في قلوب من حقق قواعد الاجتهاد، وبلغ الذكاء والانتقاد. ثم إن هؤلاء العامة يَحْضُرون الخطب في الجمع والأعياد، ويذوقون الوعظ ويفهمونه ويفتت منهم الأكباد، وتدمع منهم العيون، فيكثر منهم البكاء والنحيب. ثم إنك تراهم يقرؤون كتباً مؤلفة من الفروع الفقهية ويفهمون ما فيها، ويعرفون معناها، ويعتمدون عليها، ويرجعون في الفتوى والخصومات إليها.

فيا ليت شعري! ما الذي خص الكتاب والسنَّة بالمنع عن معرفة معانيها، وفهم تراكيبها ومبانيها، والإعراض عن استخراج ما فيها، حتى جعلت معانيها كالمقصورات في الخيام، قد ضربت دونها السجوف، ولم يبق لنا إليها إلا ترديد ألفاظها والحروف، وأن استنباط معانيها قد صار حِجْراً محجوراً، وحرماً محرماً محصوراً؟!»(١).

ولم يعلم من حرم نفسه التدبر خوفاً من القول على الله بغير علم، أن تفسير

(١) إرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد، ص ٣٦، ضمن مجموعة الرسائل المنيرية، الجزء الأول، بتصرف يسير.

مراد الله واستنباط الأحكام الشرعية هي منزلة خاصة بالعلماء والمفسرين، وهناك درجات ومنازل من الفهم، والاعتبار، والتذكر، والادكار، والاتعاظ، ومحاسبة النفس، لا عذر له في تركها.

٥ - قَصْر الهمَّة على كثرة القراءة فقط:

عملاً بآيات وأحاديث صحت في فضلها، ولكنه هجر آيات وأحاديث صريحة في الحث على التدبر والخشوع، والتأثر بالمعاني والعظات.

ويعضد ذلك اقتصار كثير من المذكرين والوعاظ على الروايات المنقولة عن السلف في كثرة القراءة، وعدد الختمات في وقت وجيز، والإعراض عن نقل نهيهم عن سرعة القراءة والعجلة في التلاوة، أو ما نقل عنهم في تعظيمهم شأن التدبر والحض عليه، أو ما روي من تأثرهم بالتلاوة ووقوفهم عند المعاني. فربما اقتصر أحدهم على نقل كلام ابن رجب - رحمه الله - الذي يقول فيه: «وإنما ورد النهي عن قراءة القرآن في أقل من ثلاث على المداومة على ذلك، أما في الأوقات المفضلة كشهر رمضان . . . فيستحب الإكثار فيها من تلاوة القرآن، وهو قول أحمد وإسحاق وغيرهما، وعليه دلَّ فعل غيرهم»[١]. وتخصيصه النهي على المداومة يحتاج إلى دليل؛ حيث يقول سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز - رحمه الله -: «وبعض السلف قال: يستثنى من ذلك أوقات الفضائل، وإنه لا بأس أن يختم كل ليلة أو في كل يوم، كما ذكروا هذا عن الشافعي وعن غيره، ولكن ظاهر السنَّة: أنه لا فرق بين رمضان وغيره، وأنه ينبغي له أن لا يتعجل، وأن يطمئن في قراءته وأن يرتل، كما أمر النبي ﷺ عبد الله بن عمرو، فقال: «اقرأه في سبع»[٢]، هذا آخر ما أمره به، وقال: «لا يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث»[٣]، ولم يقل: إلا في رمضان؛ فحَمْلُ بعض السلف هذا على غير

(١) لطائف المعارف، ص ٢٠٢.

(٢، ٣) ينظر تخريج الحديث، ص ١٢٣، وبسط المسألة في فقرة (مدة ختم القرآن)، ص ١٢١.

رمضان محل نظر، والأقرب - والله أعلم - أن المشروع للمؤمن أن يعتني بالقرآن ويجتهد في إحسان قراءته، وتدبر القرآن والعناية بالمعاني، ولا يعجل. والأفضل أن لا يختم في أقل من ثلاث، هذا هو الذي ينبغي حسب ما جاءت به السنَّة، ولو في رمضان»(١).

فاستحباب الإكثار من القراءة في الأحوال الفاضلة أمر ظاهر، ولكن لا يعني هذا الاستحباب ترك التدبر والعجلة والهذرمة فإن هذا منهي عنه، فقد قال ابن الجوزي - رحمه الله -: (وقد رأيت من يجمع الناس ويقيم شخصاً ويقرأ في النهار الطويل ثلاث ختمات؛ فإن قصر عِيب، وإن أتم مُدح، وتجتمع العوام لذلك ويحسنونه، ويريهم إبليس أن في كثرة التلاوة ثواباً، وهذا من تلبيسه؛ لأن القراءة ينبغي أن تكون لله - تعالى - لا للتحسين بها، وينبغي أن تكون على تمهل، وقال - عز وجل -: ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ [الإسراء: ١٠٦]، وقال: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ [المزمل: ٤])(٢)، و(قد لبس على قوم بكثرة التلاوة فَهُم يهذُّون هذّاً، من غير ترتيل ولا تثبت، وهذه حالة ليست بمحمودة، وقد روى جماعة من السلف أنهم كانوا يقرؤون القرآن في كل يوم أو في كل ركعة، وهذا يكون نادراً منهم، ومن داوم عليه فإنه وإن كان جائزاً إلا أن الترتيل والتثبت أحب إلى العلماء، وقد قال الرسول ﷺ: «لا يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث»)(٣).

٦ - قَصْر الهمَّة على تحقيق القراءة وحسن التلاوة وقوة الاستحضار، مع هجر تدبُّره وضعف الهمَّة عن العمل به:

يقول في ذلك ابن قدامة - رحمه الله -: «وليتخل التالي عن موانع الفهم،

(١) الجواب الصحيح من أحكام صلاة الليل والتراويح، ص ٢٧.
(٢) تلبيس إبليس، ص ١١٠.
(٣) تلبيس إبليس، ص ١٣٨.

مثل أن يخيل له الشيطان أنه ما حقق تلاوة الحرف ولا أخرجه مخرجه فيصرف همَّته عن فهم المعنى»(١)، أو يكون حاله حال من قرأ القرآن للدنيا، حيث وصف حاله الآجري ـ رحمه الله ـ فقال: «يفخر على الناس بالقرآن، ويحتج على من دونه في الحفظ، ليس للخشوع في قلبه موضع، كثير الضحك والخوض فيما لا يعنيه، هو إلى استماع حديث جليسه أصغى منه إلى استماع من يجب عليه أن يستمع له، فهو إلى كلام الناس أشهى من كلام الرب عز وجل، لا يخشع عند استماع القرآن، ولا يبكي ولا يحزن، همَّته حفظ الحروف، إن أخطأ في حرف ساءه ذلك لئلا ينقص جاهه عند المخلوقين، فتنقص رتبته عندهم، فتراه محزوناً مهموماً بذلك، وقد ضيع فيما بينه وبين الله، مما أمر به في القرآن أو نهى عنه، غير مكترث به، كثير النظر في العلم الذي يتزين به عند أهل الدنيا ليكرموه بذلك، قليل المعرفة بالحلال والحرام، تلاوته للقرآن تدلُّ على كره في نفسه وتزين عند السامعين منه، ليس له خشوع فيظهر على جوارحه، إذا دَرس القرآن، أو دَرس عليه غيره همَّته متى يقطع، ليس همته متى يفهم، لا يتفكر عند التلاوة بضروب أمثال القرآن، ولا يقف عند الوعد والوعيد، يأخذ نفسه برضى المخلوقين، ولا يبالي بسخط رب العالمين، يحب أن يُعرف بكثرة الدرس، ويظهر ختمة القرآن ليحظى عندهم، قد فتنه حسن ثناء الجهلة، أخلاقه أخلاق الجهال، إن أكل فبغير علم، وإن شرب فبغير علم، وإن لبس فبغير علم، وإن جامع أهله فبغير علم، وإن نام فبغير علم، وإن صحب أقواماً أو زارهم أو سلَّم عليهم فبغير علم، وغيره ممن يحفظ جزءاً من القرآن مطالبٌ لنفسه بما أوجب الله عليه من علم أداء فرائضه، واجتناب محارمه، وإن كان لا يؤبه له، ولا يشار إليه بالأصابع»(٢).

---

(١) مختصر منهاج القاصدين، ص ٦٧ ـ ٦٨.

(٢) أخلاق حملة القرآن، ص ٤٤، باب أخلاق من قرأ القرآن لا يريد به الله عز وجل، بتصرف يسير.

٧ ـ تقديم ما دون التدبر من العلم والعمل، والاشتغال به عن التدبر:

وذلك نتيجة الإخلال بترتيب أولويات العلم ومقاصده والعمل ومنافعه، قال الشافعي ـ رحمه الله ـ عن كتاب الله: «حقٌّ على طلبة العلم بلوغ غاية جهدهم في الاستذكار من علمه، والصبر على كل عارض دون طلبه، وإخلاص النية لله في استدراك علمه نصاً واستنباطاً، والرغبة إلى الله في العون عليه، فإنه لا يدرك إلا بعونه؛ فإن من أدرك علم أحكام الله في كتابه نصاً واستدلالاً، ووفَّقه الله للقول والعمل بما علم منه: فاز بالفضيلة في دينه ودنياه، وانتفت عنه الريب، ونورت في قلبه الحكمة، واستوجب في الدين موضع الإمامة»[1].

وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: أيما طلب القرآن أو العلم أفضل؟ فأجاب: «أما العلم الذي يجب على الإنسان عيناً كعلم ما أمر الله به وما نهى الله عنه، فهو مقدم على حفظ ما لا يجب من القرآن؛ فإن طلب العلم الأول واجب وطلب الثاني مستحب، والواجب مقدم على المستحب.

وأما طلب حفظ القرآن: فهو مقدم على كثير مما تسميه الناس علماً، وهو إما باطل أو قليل النفع، وهو أيضاً مقدم في التعلم في حق من يريد أن يتعلم الدين من الأصول والفروع؛ فإن المشروع في حق مثل هذا في هذه الأوقات، أن يبدأ بحفظ القرآن فإنه أصل علوم الدين، . . . والمطلوب من القرآن هو فهم معانيه والعمل به؛ فإن لم تكن هذه همَّة حافظه لم يكن من أهل العلم والدين»[2].

ويقول ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ عمن اشتغل بظاهر العلم عن المهم: «فربما رأيت إمام مسجد يتصدى للإقراء، ولا يعرف ما يفسد الصلاة، وربما حمله حب التصدر ـ حتى لا يرى بعين الجهل ـ على أن يجلس بين يدي العلماء ويأخذ عنهم العلم، ولو تفكروا لعلموا أن المراد حفظ القرآن وتقويم ألفاظه، ثم فهمه، ثم

---

(١) الرسالة، ص ١٩.

(٢) الفتاوى، ٢٣ / ٥٤.

العمل به، ثم الإقبال على ما يصلح النفس ويطهر أخلاقها، ثم التشاغل بالمهم من علوم الشرع. ومن الغبن الفاحش تضييع الزمان فيما غيره الأهم»[١].

٨ ـ قَصْر معاني الآيات على قوم مضوا، أو أحوال خاصة قد انتهت:

أو أوضاع مضت، وأن الواقع لا يدخل تحت ما في القرآن من الهدي والإرشاد والبيان؛ ولذا كان هذا صارفاً لكثير من الناس عن إمعان النظر في القرآن والبحث عن الهدى فيه، وطلب الشفاء منه، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته وتضمنه له، ويظنونه في نوع وفي قوم قد خلوا من قبل ولم يعقبوا وارثاً، وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن، ولعمر الله! إن كان أولئك قد خلوا فقد ورثهم من هو مثلهم، أو شر منهم أو دونهم، وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك»[٢]. وقال الشيخ عبد اللطيف آل الشيخ: «وربما سمع بعضهم قول من قال من المفسرين: هذه نزلت في عبَّاد الأصنام، هذه في النصارى، هذه في الصابئة، فيظن الغُمر أن ذلك مختص بهم، وأن الحكم لا يتعداهم، وهذا أكبر الأسباب التي تحول بين العبد وبين فهم القرآن»[٣].

وما أشبه هذا بما فعله كثير من الناس حينما يحصرون هدي القرآن في شعائر محدودة كالطهارة والصلاة والصوم والزكاة ونحوها.

ويهجرون هديه في مجالات أخرى كالاقتصاد والإعلام والتعليم، وما كان حجتهم إلا أن هذه مجالات حديثة لا تدخل تحت أحكام القرآن.

فينبغي لمن أراد الانتفاع بالقرآن أن يجعل القرآن خطاباً موجهاً إليه، وأن

---

(١) تلبيس إبليس، ص ١٠٩.

(٢) مدارج السالكين، ١ / ٣٤٣.

(٣) تحفة الطالب والجليس، للشيخ عبد اللطيف آل الشيخ، ص ٥٩، نقلاً عن مجلة البيان، العدد ١٦٢، ص ١٣.

«يقدّر أنه المقصود بكل خطاب في القرآن؛ فإن سمع أمراً أو نهياً قدّر أنه المنهي والمأمور، وإن سمع وعداً أو وعيداً فكذلك، وإن سمع قصص الأولين والأنبياء علم أن السمر غير مقصود، وإنما المقصود أن يَعتبر بها ويأخذ من تضاعيفها ما يحتاج إليه، وإذا قُصد بالخطاب جميع الناس فهذا القارئ الواحد مقصود، فما له ولسائر الناس، فليقدر أنه المقصود، قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]. قال محمد بن كعب القرظي: «من بلغه القرآن فكأنما كلمه الله»، وإذا قدَّر ذلك لم يتخذ قراءة القرآن عمله، بل يقرؤه كما يقرأ العبد كتاب مولاه الذي كتبه إليه ليتأمله ويعمل بمقتضاه»(١).

«إن النص القرآني معد للعمل لا في وسط أولئك الذين عاصروا الحادث وشاهدوه فحسب؛ ولكن كذلك للعمل في كل وسط بعد ذلك وفي كل تاريخ، معد للعمل في النفس البشرية إطلاقاً كلما واجهت مثل ذلك الحادث أو شبهه في الآماد الطويلة، والبيئات المنوعة؛ بنفس القوة التي عمل بها في الجماعة الأولىٰ»(٢).

٩ ـ الانشغال بالمبهمات:

فإن الاهتمام بتفاصيل الحوادث التي لم تذكر صارف عن التدبر وعن مقاصد الآيات العظيمة، فكثيراً ما يرد في القرآن أعيان وأماكن وأعداد مبهمة ولم يبينها الرسول ﷺ، فهي أمور لا يتوقف عليها عمل، ولا يحصل بها علم نافع يحتاج الناس إليه، وقد هوَّن الله من شأن معرفة الناس بعدد أصحاب الكهف في قوله ـ سبحانه ـ: ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلا

---

(١) موعظة المتقين من إحياء علوم الدين، القاسمي، كتاب آداب تلاوة القرآن، ص ٨٤، طبعة دار الفكر، بيروت. بتصرف.

(٢) الظلال، ج ٥، ص ٢٨٣٦.

تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٢]؛ فعلم بذلك أن عددهم لا طائل تحته، فمثل تلك الأمور لا فائدة فيها تعود على المكلفين في دنياهم ولا دينهم، والبحث عنها لا طائل تحته ولا فائدة فيه[1].

١٠ ـ النظر في القرآن من خلال مفهومات قاصرة:

ومن خلال تلك المفهومات القاصرة تفهم الآيات وتفسر المقاصد، ويخصص العام ويقيد المطلق، ومن خلال خلفيات سابقة يُحكم على النصوص فلا ينتفع القارئ بقراءة القرآن، ولا يحصل له التدبر المقصود، فهو يردد الألفاظ وقد زاغ قلبه عن المعنى المراد أو قصر نظره أو ضل فهمه.

ولعل من الشواهد على ذلك ما يأتي:

المثال الأول: في تأويل ﴿**وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ**﴾ [**البقرة**: ١٩٥] ما رواه أسلم أبي عمران التجيبي قال: «كنا بمدينة الروم فأخرجوا إلينا صفاً عظيماً من الروم، فخرج إليهم من المسلمين مثلهم أو أكثر... فحمل رجلٌ من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم، فصاح الناس وقالوا: سبحان الله! يلقي بيديه إلى التهلكة. فقام أبو أيوب الأنصاري فقال: يا أيها الناس، إنكم تتأولون هذه الآية هذا التأويل وإنما أنزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار لما أعز الله الإسلام وكثر ناصروه؛ فقال بعضنا لبعض سراً دون رسول الله ﷺ: إن أموالنا قد ضاعت، وإن الله قد أعز الإسلام وكثر ناصروه؛ فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها. فأنزل الله على نبيه ﷺ يرد علينا ما قلنا: ﴿**وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ**﴾ [**البقرة**: ١٩٥]. فكانت التهلكة الإقامة على الأموال وإصلاحها وتركنا الغزو»[2].

---

(١) قاله الشنقيطي ـ رحمه الله ـ في تفسيره: (أضواء البيان)، ٤ / ٤٣، وقد ذكر ـ رحمه الله ـ أمثلة عديدة على مبهمات ذكرت في القرآن، ثم قال عنها: «لا فائدة في البحث عنها، ولا دليل على التحقيق فيها».

(٢) رواه الترمذي، ٢٩٧٢، واللفظ له، وقال: حديث حسن صحيح. ورواه أبو داود، ٢٥١٢؛ =

المثال الثاني: في تأويل: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، عن أبي بكر - رضي الله عنه - قال: يا أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية وتضعونها على غير مواضعها: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥].

وإنا سمعنا النبي ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه؛ أوشك أن يعمهم الله بعقاب»(١).

المثال الثالث: في تأويل قوله - تعالى -: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

قال عدي بن حاتم - رضي الله عنه - أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: ٣١]، فقلت: يا رسول الله، لسنا نعبدهم. قال: أليس يحلون لكم ما حرم الله فتحلونه، ويحرمون ما أحل الله فتحرمونه؟! قال: بلى. قال النبي ﷺ: فتلك عبادتهم»(٢).

المثال الرابع: في تأويل: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]، فكثيراً ما

= ورواه الحاكم، وقال: على شرط الشيخين. ووافقه الذهبي، ٢ / ٢٧٥؛ والطيالسي، ٥٩٩؛ والطبراني في الكبير، ٤٠٦٠؛ والبيهقي، ٨ / ٩٩؛ وقال ابن حجر: وصححه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم، انظر: العجاب في بيان الأسباب، ١ / ٤٨٠؛ وقال محقق زاد المعاد: (٣ / ٨٨): إسناده صحيح.

(١) رواه أبو داود، ٤٣٣٨؛ والترمذي، ٣٠٥٧، وقال: هذا حديث حسن صحيح. وابن ماجه، ٤٠٠٥؛ وأحمد، ١ / ٢، ٥، ٧، ٩؛ وابن حبان، ١٨٣٧ وصححه، وصححه النووي في رياض الصالحين، ١٠٦، باب في الأمر بالمعروف.

(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى، ١٠ / ١١٦، واللفظ له؛ ورواه الترمذي، رقم ٣٠٩٥، وعنده أنه قال: «أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه»؛ ورواه ابن جرير، ١٦٦٣١؛ والطبري من رواية حذيفة - رضي الله عنه - ١٦٦٣٤، وفي جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، رواية صحيحة موقوفة على حذيفة رضي الله عنه، ٢ / ٩٧٧.

تسمع من يستشهد بهذه الآية على ترك الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر، باعتبار أن لكل إنسان سبيله، ولا أحد يعترض عليه، ولكلٍ دينه وطريقته، وما علم أن الآية حجة عليه لا له، وأنه لو أراد أن يعمل بمقتضى الآية؛ عليه أن يعلن كفر من خالفه في الدين، وأن يتبرأ منهم، وأنه لا يلتقي معهم في شيء، وأن ما هم عليه كفر وضلال مهما ظنوه ديناً أو عبادة.

وهكذا القول في أصحاب البدع والمخالفات والمعاصي التي دون الكفر، فمقتضى الآية أن يصرح لهم بالبراءة من فعلهم، وأنهم مخالفون للحق في فعلهم، وأنه ليس من دينه في شيء.

١١ ـ قصر قراءة القرآن على أحوال خاصة:

كمن لا يسعى إلى سماع القرآن إلا عند مرضه، أما في حال صحته وكمال عقله وصفاء ذهنه فإنه لا يتشوف إلى سماع القرآن أو قراءته؛ حيث حرم نفسه السبيل إلى تدبر القرآن.

وكذلك حال من لا يعرف القرآن إلا تلاوة عند العزاء[١]، أو عند افتتاح البرامج، أو في المناسبات العامة، ولا يعرف له وقتاً آخر لسماع القرآن أو قراءته؛ فأنى له التدبر والتأمل والاعتبار والتأثر وهذه حاله؟!

---

(١) ولا يخفى أن هذا بدعة؛ حيث لم تعرف عن النبي ﷺ، ولا عن أحد من أصحابه رضي الله عنهم.

المبحث الخامس

من درجات التدبُّر

من درجات التدبُّر

الدرجة الأولى: التفكُّر والنظر والاعتبار:

قال ـ سبحانه ـ: ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٩]. وقال: ﴿ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢١]. وقال ـ سبحانه ـ: ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران: ٧].

* وهي سمة لأهل العلم، قال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ: «ما زال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكر، وبالتفكر على التذكر، ويناطقون القلوب حتى نطقت بالحكمة؛ فالتفكر والتذكر بذار العلم، وسقيه مطارحته، ومذاكرته تلقيحه»(١).

* وهي من أشرف الأعمال لأن الفكرة عمل القلب والعبادة عمل الجوارح، قال أبو سليمان: «الفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة وعقوبة لأهل الولاية، والفكرة في الآخرة تورث الحكمة وتجلي القلبَ».

* التفكر يوقع صاحبه من الإيمان على ما لا يوقعه عليه العمل المجرد؛ فإن التفكر يوجب له انكشاف حقائق الأمور، فيفرق بين الوهم وبين الحقيقة. إذا فكر العبد في عواقب الأمور، وتجاوز فكره مباديها، ووضعها مواضعها، وعلم مراتبها؛ فإنه إذا ورد عليه وارد الذنب والشهوة، تجاوز بفكره لذتَه وفرحَ النفسِ به إلى سوء العاقبة، وما يترتب عليه من الألم والحزن الذي لا يقاوم تلك اللذة والفرحة؛ فإنه لا يكاد يُقدم عليها.

* وكذلك إذا ورد على قلبه وارد الراحة والدعة والكسل والتقاعد عن مشقة الطاعات وتعبها، عبر بفكره إلى ما يترتب عليه من اللذات والخيرات، وكلما غاص فكره في ذلك اشتد طلبه لها، وسهل عليه معاناتها، واستقبلها بنشاط

(١) مفتاح دار السعادة، ص ٢١٧.

وقوة وعزيمة.

* وكذلك إذا فكَّر في منتهى ما يستعبده من المال والجاه والصور، ونظر إلى غاية ذلك بعين فكره استحى من عقله ونفسه أن يكون عبداً لذلك.

* لا بد لمن تفكر أن تكون نتيجة الفكر: حال تحدث للقلب، ولا بد لتلك الحال أن توجب له إرادة، وتلك الإرادة توجب وقوع العمل، فالفكر إذن هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها، وهذا يكشف لك فضل التفكر وشرفه، وأنه من أفضل أعمال القلب وأنفعها له، حتى قيل: تفكر ساعة خير من عبادة سنة.

* الفكر هو الذي ينقل من موت الفطنة إلى حياة اليقظة، ومن المكاره إلى المحاب، ومن الرغبة والحرص إلى الزهد والقناعة، ومن سجن الدنيا إلى فضاء الآخرة، ومن ضيق الجهل إلى سعة العلم ورحبه، ومن مرض الشهوات والإخلاد إلى هذه الدار إلى شفاء الإنابة إلى الله والتجافي عن دار الغرور، ومن مصيبة العمى والصمم والبكم إلى نعمة البصر والسمع والفهم عن الله والعقل عنه، ومن أمراض الشبهات إلى برد اليقين.

* تدبُّر كلام الله يوجب معرفة صفاته وأفعاله، وتنزيه الرب عما لا يليق به، ووصفه بما هو أهله من الجلال والإكرام.

* وتدبُّر أيامه وأفعاله في أوليائه وأعدائه التي قصها على عباده؛ تورث الإيمان بأنه على كل شيء قدير، وأنه شديد العقاب، وأنه غفور رحيم، وأنه العزيز الحكيم، وأنه الفعال لما يريد، وأنه وسع كل شيء رحمة وعلماً، وأن أفعاله كلها دائرة بين الحكمة والرحمة والعدل والمصلحة؛ لا يخرج شيء منها عن ذلك.

* وهذه الثمرات لا سبيل إلى تحصيلها إلا بتدبُّر كلامه، والنظر في آثار أفعاله؛ وإلى هذين الأصلين ندب عباده في القرآن، فقال في الأصل الأول: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [النساء: ٨٢]. وقال في الأصل الثاني: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الروم: ٤٢].

* التفكر في القرآن نوعان: تفكر فيه ليقع على مراد الرب - تعالى - منه، وتفكر في معاني ما دعا عباده إلى التفكر فيه. فالأول تفكر في الدليل القرآني، والثاني تفكر في الدليل العياني. فالأول تفكر في آياته المسموعة، والثاني تفكر في آياته المشهودة، ولهذا أنزل الله القرآن ليتدبر ويتفكر فيه، ويعمل به، لا لمجرد التلاوة مع الإعراض عنه(١).

قال الحسن البصري - رحمه الله -: «إن من أفضل العمل: الورع والتفكر»(٢).

الدرجة الثانية: التأثر وخشوع القلب:

وخشوع القلب: هو ذلته وسكُونه لله(٣)؛ ولذلك تسمو الروح، وتبكي العين، وتتأثر الجوارح، وتذل النفس لخالقها وتخضع لربها، ويورث ذلك خشوع الظاهر. وقد أجمع العارفون على أن محل الخشوع القلب(٤)، يقول القرطبي - رحمه الله تعالى - في تفسير قوله - تعالى -: ﴿**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ**﴾ [الزمر: ٢٣]: «لما كان القرآن في غاية الجزالة والبلاغة اقشعرت الجلود منه إعظاماً له، وتعجباً من حسن ترصيعه، وتهيباً لما فيه»(٥). وقد مدح الله - عز وجل - في كتابه البكائين مخبراً عن الأنبياء، ومن انضاف إليهم من الأولياء: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا**﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩]، وأخبر أن البكاء يزيدهم خشوعاً؛ ولذلك قيل: «إن خشوع القلب للقرآن واجب»(٦).

---

(١) النقاط السابقة مقتطفات من مفتاح دار السعادة، لابن القيم - رحمه الله -، ص ٢١٥ - ٢٢٠، وقد ذكر أمثلة على ذلك.

(٢) الزهد، لابن المبارك، ص ٩٦.

(٣) انظر: مدارج السالكين، ١ / ٥٢١.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، ١ / ٣٧٥، وقال القرطبي: «إذا سكن القلب أوجب خشوع الظاهر».

(٥) الجامع لأحكام القرآن، ١٥ / ٢٥٠.

(٦) نقله ابن مفلح عن شيخ الإسلام في الآداب الشرعية، ٢ / ٣٠٤.

من خشوع الرسول ﷺ :

عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: «قال لي النبي ﷺ: اقرأ عليّ. قلت: يا رسول الله! أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال ﷺ: فإني أحب أن أسمعه من غيري. فقرأت عليه سورة النساء، حتىٰ بلغت: ﴿ **فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا** ﴾ [النساء: ٤١] ، قال لي: أمسك! . فإذا عيناه تذرفان»[١] .

قال ابن بطال ـ رحمه الله ـ: « إنما بكىٰ ﷺ عند تلاوته لأنه مثل لنفسه أهوال يوم القيامة، وشدة الحال الداعية له إلىٰ شهادته لأمته بالتصديق، وسؤاله الشفاعة لأهل الموقف، وهو أمر يحق له طول البكاء»[٢] . قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ: «والذي يظهر أنه بكىٰ رحمةً لأمته؛ لأنه علم أنه لا بد أن يشهد عليهم بعملهم، وعملهم قد لا يكون مستقيماً فقد يفضي إلىٰ تعذيبهم»[٣] .

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: يا رسول الله، قد شبت! قال رسول الله ﷺ: «شيبتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت»[٤] . وقيل إن الذي شيب رسول الله ﷺ من سورة هود هو قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ **فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ** ﴾ [**هود**: ١١٢][٥] .

---

(١) أخرجه البخاري، رقم ٤٥٨٢ ؛ ومسلم، رقم ٨٠٠؛ والترمذي، رقم ٣٠٢٧، ٣٠٢٨، وفي روايته: (تهملان)؛ وأبو داود، رقم ٣٦٦٨ .

(٢، ٣) الفتح، ٩ / ٩٩ .

(٤) رواه الترمذي، رقم ٣٢٩٧، وقال: حديث حسن غريب؛ وابن أبي شيبة، ١٠ / ٥٥٣، والحاكم، ٢ / ٤٧٦، وقال: علىٰ شرط البخاري. ووافقه الذهبي، وفي رواية عند ابن سعد، عن قتادة قال ﷺ: «شيبتني هود وأخواتها» رواها الطبراني، ١٧/ ٢٦؛ وصحح الحديث الألباني في السلسلة الصحيحة، ٩٥٥؛ وفي صحيح الجامع برقم ٣٧٢٠، ٣٧٢٣، وفيه بلفظ: «شيبتني هود وأخواتها قبل المشيب»، برقم ٣٧٢١، وبلفظ: «شيبتني هود وأخواتها من المفصل»، برقم ٣٧٢٢ .

(٥) الجامع لأحكام القرآن، ٩ / ٢ .

ولم يكن بكاؤه ﷺ بشهيق ورفع صوت، ولكن كانت تدمع عيناه حتى تهملان، ويُسمع لصدره أزيز، وكان بكاؤه عند سماعه القرآن بكاء اشتياق ومحبة وإجلال، مصاحب للخوف والخشية(١).

من خشوع السلف:

عن أسماء بنت أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ قالت: «كان أصحاب النبي الله ﷺ إذا قُرئ عليهم القرآن كما نعتهم الله، تدمع أعينهم، وتقشعر جلودهم»(٢).

وفي قصة حماية ابن الدغنة لأبي بكر ـ رضي الله عنه ـ قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجداً بفناء داره، وكان يصلي فيه ويقرأ القرآن، فيتقذف عليه نساء المشركين وأبناؤهم يعجبون منه وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلاً بكاءً لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن، فأفزع ذلك أشراف قريش»(٣).

وفي حديث آخر: «إن أبا بكر رجل رقيق؛ إذا قرأ القرآن لا يملك دمعه»(٤).

ولما قدم أهل اليمن زمن أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ وسمعوا القرآن جعلوا يبكون، قال أبو بكر: هكذا كنا(٥).

قال إبراهيم بن الأشعث ـ رحمه الله ـ: «ما رأيت أحداً كان الله في صدره أعظم من الفضيل، كان إذا ذَكر الله أو ذُكر عنده أو سمع القرآن؛ ظهر به من

---

(١) زاد المعاد، ١ / ١٨٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ١٥/ ١٤٩؛ والبغوي، ٧/ ٢٣٨.

(٣) رواه البخاري، رقم ٣٩٠٥؛ والبيهقي في الدلائل: ٢ / ٤٧١؛ وأحمد، ٦ / ٣٤٦؛ وابن سعد في الطبقات، ٨ / ٢٥٠؛ والطبري في تاريخه، ٢ / ٣٧٥، نقلاً عن (صحيح السيرة النبوية) لإبراهيم العلي، ص ٩١

(٤) رواه مسلم، رقم ٤١٨، ونحوه عند الترمذي، رقم ٣٦٧٢.

(٥) أخرجه أبو نعيم في الحلية وفي الكنز، ١ / ٢٢٤، عن حياة الصحابة، ٣ / ١٧٣.

الخوف والحزن، وفاضت عيناه، وبكى حتى يرحمه من يحضره»(١). وعن عبد الله بن المبارك ـ رحمه الله ـ قال: «سألت سفيان الثوري ـ رحمه الله ـ قلت: الرجل إذا قام في الصلاة أي شيء ينوي بقراءته وصلاته؟ قال: ينوي أنه يناجي ربه»(٢).

ولما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ الآيات التي مدح الله فيها عباده حين سماع آياته قال: «وهذا سماع سلف الأمة، وأكابر مشايخها وأئمتها كالصحابة والتابعين ومن بعدهم من المشايخ كإبراهيم بن أدهم، والفضيل بن عياض، وأبي سليمان الداراني، ومعروف الكرخي، ويوسف بن أسباط، وحذيفة المرعشي، وأمثال هؤلاء. كان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يقول لأبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ: يا أبا موسى! ذكرنا ربنا. فيقرأ وهم يسمعون ويبكون. وكان أصحاب محمد ﷺ إذا اجتمعوا أمروا واحداً منهم أن يقرأ القرآن والباقي يستمعون»(٣).

وكثرة البكاء والخشوع وسرعة التأثر لا تدل على كثرة الذنوب بل على صفاء القلوب.

الطريق إلى تحصيل الخشوع:

«وطريق تحصيله أن يحضر قلبه الحزن والخوف بتأمل ما فيه من التهديد والوعيد الشديد والمواثيق والعهود ثم ينظر تقصيره في ذلك؛ فإن لم يحضره حزن فليبك على فقد ذلك، وأنه من أعظم المصائب»(٤). قال مالك بن دينار ـ رحمه الله ـ: «ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب»(٥)؛ ولذلك تعوذ

---

(١) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء، ٢ / ٦٦١.

(٢) تعظيم قدر الصلاة، ١ / ١٩٩، وقال محققه الفريوائي: رجاله ثقات وإسناده صحيح.

(٣) التحفة العراقية، لشيخ الإسلام، ص ٥٩.

(٤) الإحياء، ١ / ٢٧٨، نقلاً عن التبيان في آداب حملة القرآن، ص ٦٤ ـ بتصرف ـ؛ وانظر: الإتقان، ١ / ١٤١، وعزاه إلى المجموع.

(٥) أخرجه الإمام أحمد في الزهد، ٢ / ٣٠٠؛ وانظر: جامع بيان العلم، ص ٧٠١، رقم ١٢٥٣، قال محققه: إسناده لا بأس به.

النبي ﷺ منه في قوله: «اللهم! إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها»(١).

وأعظم ما يجلب البكاء والخشوع هو صفاء القلب وشدة تعظيمه لله.

وقال ابن عقيل ـ رحمه الله ـ: «أليس بيننا كتاب الله ـ عز وجل ـ وهو كلامه الذي كان النبي ﷺ يتزمّل ويتدثر لنزوله، والجن تنصت لاستماعه، وأمرنا بالتأدب بقوله: ﴿**وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا**﴾ [**الأعراف**: ٢٠٤]، وأنتم معرضون، وربما أصغيتم إلى النغمة استثارة للهوى، فالله الله أن لا ننسى الأدب فيما وجب فيه حسن الأدب»(٢).

تلازم الخشوع والعلم:

قال ـ تعالى ـ: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ [**فاطر**: ٢٨]، ومما يوضح ارتباط العلم بالقرآن بخشوع القلب حديث أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ الذي يقول فيه: كنا مع رسول الله ﷺ فشخص بصره إلى السماء ثم قال: «هذا أوان اختلاس العلم من الناس حتى لا يقدروا منه على شيءٍ»، فقال زياد بن لبيد الأنصاري: كيف يُختلس منا وقد قرأنا القرآن؟ فو الله لَنقرأنّه ولَنُقرئنّه نساءنا وأبناءنا. فقال: «ثكلتك أمك يا زياد! إن كنت لأعدك من فقهاء أهل المدينة! هذا التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى؛ فماذا تغني عنهم؟!».

قال جبير بن نفير ـ أحد الرواة ـ: فلقيت عبادة بن الصامت رضي الله عنه، قلت: «ألا تسمع إلى ما يقول أخوك أبو الدرداء؟ فأخبرته بالذي قال أبو الدرداء، قال: صدق أبو الدرداء، إن شئت لأحدثنك بأول علم يرفع من الناس، أول علم يرفع من الناس: الخشوع، يوشك أن تدخل مسجد جماعة

---

(١) رواه مسلم، رقم ٢٧٢٢؛ وأحمد، ٤ / ٣٧١، عن زيد بن أرقم رضي الله عنه.

(٢) الآداب الشرعية، ٢ / ٣٠٤.

فلا ترىٰ فيه رجلاً خاشعاً»[١].

الدرجة الثالثة: الاستجابة والخضوع:

غاية ومقصد:

يبين الله لعباده أن الغاية من إنزال كتابه اتباعه والاستجابة لأمره والخضوع له، والاستقامة علىٰ نهجه، فيقول ـ سبحانه ـ: ﴿**وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ [**الأنعام**: ١٥٥]، ويقول ـ سبحانه ـ: ﴿**كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**﴾ [**البقرة**: ١٨٧]. وقال ـ سبحانه ـ: ﴿**اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ**﴾ [**الأعراف**: ٣]، قال القرطبي ـ رحمه الله ـ في تفسير قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿**ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ**﴾ [**الزمر**: ٢٣]: «أي إلىٰ العمل بكتاب الله والتصديق به»[٢].

ويوضح ابن القيم ـ رحمه الله ـ علاقة الانقياد بالخشوع فيقول: «قيل معنىٰ الخشوع: الانقياد للحق. وهذا من موجبات الخشوع»[٣].

وفي قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿**يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ**﴾ [**البقرة**: ١٢١]، يقول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «يتبعونه حق اتباعه»[٤]، وكذا قال عطاء ومجاهد وعكرمة.

ويقول ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «والذي نفسي بيده، إن ﴿**حَقَّ تِلاوَتِهِ**﴾: أن يحل حلاله، ويحرم حرامه، ويقرأه كما أنزله الله»[٥]. ويقول

---

(١) رواه الترمذي، رقم ٢٦٥٣، وقال: حديث حسن غريب؛ والدارمي، رقم ٢٩٤؛ والطحاوي، ١ / ١٢٤؛ والحاكم، ١ / ٩٩؛ وله شواهد عند ابن ماجه، رقم ٤٠٤٨؛ وأحمد ٤ / ٢١٨؛ والنسائي، ك/ ٢٧، ب/ ٤١؛ وابن حبان ١١٥؛ وحسن إسناده المنذري في (الترغيب والترهيب)، والهيثمي في (المجمع)، انظر: تخريج العودة في كتابه (صفة الغرباء)، ص ٩٨، وقال: والحديث بطرقه حسن. وانظر: تخريج الأرناؤوط (جامع الأصول)، ٨ / ٣٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ١٥ / ٢٤٩.

(٣) مدارج السالكين، ص ١ / ٥٢١.

(٤) تفسير الطبري، ١ / ٥٦٦.

(٥) وبنحوه قال قتادة رحمه الله، وانظر: تفصيل الروايات في تفسير الطبري، ١ / ٥٦٦.

مجاهد وعطاء رحمهما الله: «يعملون به حق عمله»(١).

(إن القرآن ليس كتاباً للتلاوة ولا للثقافة.. وكفى، إنما هو رصيد من الحيوية الدافعة وإيحاء متجدد في المواقف والحوادث! ونصوصه مهيأة للعمل في كل لحظة متى وُجد القلب الذي يتعاطف معه ويتجاوب، ووُجد الظرف الذي يطلق الطاقة المكنونة في تلك النصوص ذات السر العجيب!)(٢).

(ليس التدبر غاية في ذاته، إنما هو وسيلة لأمر عظيم يراد: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [الزمر: ١٧ - ٢٣]، ذلك هو الأمر العظيم المراد: أن يتحول الاستماع إلى القرآن وتلاوته والتأثر الخاشع به إلى «هدى»، إلى سلوك ملتزم بما أنزل الله في الكتاب، بعبارة أخرى يتحول إلى منهج حياة.

إن المسلمين في هذا العصر أحوج الناس إلى تدبر القرآن لهذا القصد الذي استحالت فيه العقيدة وقضية الألوهية إلى كلمة تقال باللسان والقلب غافل عن مقتضياتها.

إن القرآن ليس للإثارة الوجدانية المؤقتة التي تصحب عادة قراءة النص المحكم المؤثر البليغ، كلا إنه دروس تربية وتوجيه لهذه الأمة، تربى عليه الرسول

(١) الطبري، ١ / ٥٦٨؛ والزهد، لابن المبارك، ٢٧٣.
(٢) الظلال، ج ٥، ص ٢٨٣٦.

ﷺ وربى عليه أمته من بعد، فينبغي أن نقرأ القرآن على هذا الأساس: نقرأه ليربينا ليس شعارات ومثل معلقة في الفضاء، وليس قيماً فكرية ولكنه واقع معاش، إنه يحمل التوجيه التربوي الأكبر للمؤمنين.

وما من موضع في القرآن يخلو من هذا التوجيه، فنحن نحتاج تدبر القرآن ليربينا كما ربى الجيل الأول، فتتحول العقيدة من بديهية ذهنية إلى شيء مستقر في القلب، وقوة محركة في واقعنا، وسلوك منبثق منها، فيصبح القرآن منهج حياة في الشعور والفكر والسلوك في كل اتجاه.

وهذا هو الذي ينبغي أن نلتفت إليه التفاتاً شديداً ونحن نقرأ القرآن، لكي لا يفوتنا التدبر المطلوب منا ولا الآثار المطلوبة من هذا التدبر في واقع السلوك وواقع الحياة)[١].

وفي قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [**الأعراف**: ٢٠٤]، قال وهب بن منبه ـ رحمه الله ـ: «من أدب الاستماع سكون الجوارح... والعزم على العمل... يعزم على أن يفهم فيعمل بما فهم»[٢].

شرف العاملين بالقرآن وفضلهم:

ومن أبلغ الشواهد على شرف من يعمل بالقرآن وفضله، ما ثبت عن النواس بن سمعان ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به، تقدمه سورة البقرة وآل عمران»، وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد، قال: «كأنهما غمامتان أو ظلتان سوداوان بينهما شرق، أو كأنهما حزقان من طير صواف، تحاجان عن صاحبهما»[٣].

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ: «فما أحق من عَلِم كتاب الله أن يزدجر بنواهيه،

---

(١) اقتباس بتصرف من كتاب دراسات قرآنية، للأستاذ محمد قطب، فصل: كيف نقرأ القرآن، ص ٤٨٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ١١ / ١٧٦.

(٣) رواه مسلم، رقم ٨٠٥؛ والترمذي، رقم ٢٨٨٦.

ويتذكر ما شرح له فيه، ويخشى الله ويتقيه، ويراقبه ويستحييه؛ فإنه قد حمل أعباء الرسل، وصار شهيداً في القيامة على من خالف من أهل الملل»[١].

وفي حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال: «ضمَّني رسول الله ﷺ وقال: «اللهم علِّمه الحكمة»[٢]. قال ابن حجر - رحمه الله -: «المراد بالحكمة هنا قيل: القرآن. وقيل: العمل به»[٣].

وقد يكون الخضوع والاستجابة لكلام الله، حينما يواجه المؤمن موقفاً فيَتذكر آية، أو يُذَكَّر بها، فيقف عندها، ولا يتعدى حدودها. قال السدي - رحمه الله تعالى - في قوله - عز وجل -: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢]: «إذا أراد أن يظلم مظلمة قيل له: اتق الله. كَفَّ ووَجل قلبه»[٤].

ترك العمل بالقرآن من أعظم الهجر:

قال الله - تعالى -: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾ [الفرقان: ٣٠].

وحين ذكر ابن القيم - رحمه الله - أنواع هجر القرآن، قال: «الثاني: هجر العمل به، والوقوف عند حلاله وحرامه، وإن قرأه وآمن به. والثالث: هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه، واعتقاد أنه لا يفيد، وأن أدلته لفظية لا تحصِّل العلم، . . . وتارة يكون من جهة كفايته وعدمها، وأنه لا يكفي العباد، بل هم محتاجون معه إلى المعقولات والأقيسة، أو الآراء أو السياسات»[٥]. وكيف والله يقول: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]؟!

وعن قوله - تعالى -: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا

(١) الجامع لأحكام القرآن، ١ / ٢.
(٢) رواه البخاري، رقم ٣٧٥٦.
(٣) الفتح، ١ / ١٧٠.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، ٧ / ٣٦٤.
(٥) الفوائد، ص ١٥٦.

تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧] ، يقول مالك بن مغول ـ رحمه الله ـ: «تركوا العمل به»[١] .

وقال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ: نزل القرآن ليتدبر ويعمل به فاتخذوا تلاوته عملاً[٢] . وتدبر آياته: اتباعه والعمل بعلمه، أما والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده؛ حتى إن أحدهم ليقول: لقد قرأت القرآن كله فما أسقطت منه حرفاً، وقد والله أسقطه كله، ما يُرىٰ له القرآن في خلق ولا عمل[٣] . ومن أحب أن يعلم ما هو فليعرض نفسه على القرآن[٤] . وإن من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم فكانوا يتدبرونها بالليل، وينفذونها بالنهار[٥] .

ويقول القرطبي ـ رحمه الله ـ: (ومن أتي علم القرآن فلم ينتفع، وزجرته نواهيه فلم يرتدع، وارتكب من الإثم قبيحاً، ومن الجرائم فضوحاً؛ كان القرآن حجة عليه، وخصماً لديه، قال ﷺ : «القرآن حجة لك أو عليك»[٦]) [٧].

هدي السلف علم وعمل:

ولقد كان هذا نهج يسير عليه الصحابة رضي الله عنهم، فهذا التابعي أبو عبد الرحمن السلمي ـ رحمه الله ـ ينقل ذلك عن ثلاثة من كبار الصحابة رضي الله عنهم، فيروي عن عثمان وابن مسعود وأُبيّ بن كعب ـ رضي الله عنهم ـ : «أن رسول الله ﷺ كان يقرئهم العشر فلا يجاوزونها إلى عشر أخرىٰ حتىٰ يتعلموا ما فيها من العمل، [قالوا:] فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً»[٨] .

---

(١) جامع بيان العلم، ص ٧٠٨، رقم ١٢٨١ .

(٢) مدارج السالكين، ١ / ٤٥١؛ ونحوه في تلبيس إبليس، لابن الجوزي، ص ١٠٩، ونقل عن الفضيل بن عياض، انظر: اقتضاء العلم العمل، ص ٧٦.

(٣) أخلاق حملة القرآن، للآجري، ص ٥٠، والزهد، لابن المبارك، ص ٢٧٤؛ وكتاب البدع والحوادث، ٩٩؛ وابن نصر في (قيام الليل)، ص ٧٢؛ والفريابي في (فضائل القرآن)، رقم ١٧٧ .

(٤) أخلاق حملة القرآن، للآجري، ٢٠؛ والزهد، لابن المبارك، ص ١٣ .

(٥) التبيان، النووي، ٤٢ .

(٦) رواه مسلم، رقم ٢٢٣؛ وأحمد، ٥ / ٣٤٢، ٣٤٣؛ والدارمي، ١ / ١٦٧؛ والترمذي، رقم ٣٥١٧؛ وابن ماجه، رقم٢٨٠؛ والبيهقي، ١ / ٤٢؛ وابن حبان، ٨٤٤.

(٧) الجامع لأحكام القرآن، ١ / ٢.

(٨) الجامع لأحكام القرآن، ١ / ٣٩، وعزاه إلى كتاب أبي عمرو الداني (البيان)، والطبري، ١ / ٦٠، ٨٢.

إن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ (لم يكونوا يقرؤون القرآن بقصد الثقافة والاطلاع، ولا بقصد التذوق والمتاع، لم يكم أحدهم يتلقى القرآن ليستكثر به من زاد الثقافة لمجرد الثقافة، ولا ليضيف إلى حصيلته من القضايا العلمية والفقهية محصولاً يملأ به جعبته، إنما كان يتلقى القرآن ليتلقى أمر الله في خاصة شأنه وشأن الجماعة التي يعيش فيها، وشأن الحياة التي يحياها هو وجماعته، يتلقى الأمر ليعمل به فور سماعه، كما يتلقى الجندي في الميدان الأمر اليومي ليعمل به فور تلقيه... إن هذا القرآن لم يجئ ليكون كتاب متاع عقلي، ولا كتاب أدب وفن، ولا كتاب قصة وتاريخ، وإن كان هذا كله من محتوياته إنما جاء ليكون منهاج حياة)(١).

محاسبة النفس على العمل بالقرآن:

ويبين ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ الطريق إلى ذلك فيقول: «التفكر في الخير يدعو إلى العمل به»(٢).

وقال سفيان ـ رحمه الله ـ: «ليس في كتاب الله آية أشد عليّ من قوله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ [المائدة: ٦٨]، وإقامتها: فهمها والعمل بها»(٣).

وعن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: «أخوف ما أخاف أن يُقال لي يوم القيامة: يا عويمر، أعلمت أم جهلت؟ فإن قلت: علمت. لا تبقى آية آمرة أو زاجرة إلا أخذت بفريضتها: الآمرة هل ائتمرت؟ والزاجرة هل ازدجرت؟ وأعوذ بالله من علم لا ينفع، ونفس لا تشبع، ودعاء لا يسمع»(٤).

---

(١) معالم في الطريق، ١٤، ١٥.

(٢) مفتاح دار السعادة، ص ٢١٥.

(٣) كتاب البدع والحوادث، ص ١٠١.

(٤) أخرجه عبد الله بن أحمد في (زوائد الزهد)، ٢/ ٦٥؛ وعنه أبو نعيم في الحلية، ١/ ٢١٣، وروى أوله الدارمي في سننه (١/ ٨٢)، وجامع بيان العلم ١٢٠١، ١٢٠٤، والخطيب البغدادي في (اقتضاءُ العلم العمل)، وفي الكتاب جملٌ مفيدة حول العمل بالعلم، وانظر: حياة الصحابة، ٣/ ٢٤٣.

ويفيض الآجري ـ رحمة الله عليه ـ في توضيح خضوع القلب لكلام الله، وكيف تكون الاستجابة لداعي الله؟ وكيف يحاسب القارئ نفسه وكيف يسألها سؤال المشفق الخاضع الذليل؟ فيقول عن قارئ القرآن: «يتصفح القرآن ليؤدب به نفسه، همَّته متى أستغني بالله عن غيره؟ متى أكون من المتقين؟ متى أكون من الخاشعين؟ متى أكون من الصابرين؟ متى أكون من الصادقين؟ متى أكون من الخائفين؟ متى أكون من الراجين؟ متى أزهد في الدنيا؟ متى أرغب في الآخرة؟ متى أتوب من الذنوب؟ متى أعرف النعم المتواترة؟ متى أشكره عليها؟ متى أعقل عن الله الخطاب؟ متى أفقه ما أتلو؟ متى أغلب نفسي على ما تهوى؟ متى أجاهد في الله حق جهاده؟ متى أحفظ لساني؟ متى أغض طرفي؟ متى أحفظ فرجي؟ متى أستحي من الله حق الحياء؟ متى أشتغل بعيبي؟ متى أصلح ما فسد من أمري؟ متى أحاسب نفسي؟ متى أتزود ليوم معادي؟ متى أكون عن الله راضياً؟ متى أكون بالله واثقاً؟ متى أكون بزجر القرآن متعظاً؟ متى أكون بذكره عن ذكر غيره مشتغلاً؟ متى أُحِب ما أحَب؟ متى أُبغِض ما أبغَض؟ متى أنصح لله؟ متى أخلص له عملي؟ متى أقصر أملي؟ متى أتأهب ليوم موتي وقد غيب عني أجلي؟ متى أعمّر قبري؟ متى أفكر في الموت وشدته؟ متى أفكر في خلوتي مع ربي؟ متى أفكر في المنقلب؟ متى أحذر مما حذرني منه ربي؟ متى. . . »[1].

وقال ابن مفلح ـ رحمه الله ـ في حال من يقرأ القرآن ـ: «ينبغي أن يكون ذا سكينة ووقار، يُعرف القرآن في سمته وخلقه، . . . ما أخوفني أن يكون المصحف في بيتك وأنت مرتكب لنواهي الحق ـ سبحانه ـ فتدخل تحت قوله: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، فهجران الأوائل كلام الحق يوجب ما أوجب عليهم من الإبعاد والمقت . . . فالله الله! في إهمال ما وجب لله ـ تعالى ـ من الأدب عند تلاوة القرآن، والإنصات للفهم والنهضة للعمل بالحكم إيفاءً

(١) أخلاق حملة القرآن، ص ٤٠.

للحقوق إذا وجبت، وصبراً على أثقال التكاليف إذا حضرت، وتلقياً بالتسليم للمصائب إذا نزلت، وحشمة للحق في كل أخذ وترك؛ حيث نبهك على سبب الحشمة فقال: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣]، ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣]، ثكلت نفسي حين أسمع القرآن ولا أخشع، وأسمع كلام الطرقيين فيظهر مني الانزعاج . . . وللحق ثقلٌ فلا يغرنكم تحرك الطباع بالأسجاع والألحان . . . ترىٰ بماذا تحدث عنك سواري المسجد في الظلم . . . من خوف الوعيد والتذكر للآخرة بنظر العبرة، إذا تحدثت عن أقوام ختموا في بيوتهم الختمات وصانوا الأهل اتباعاً للنبي ﷺ؛ حيث انسل من فراش عائشة - رضي الله عنها - إلىٰ المسجد لا شموع، ولا جموع، طوبىٰ لمن سمع هذا الحديث، فانزوىٰ إلىٰ زاوية بيته، وانتصب لقراءة جزء في ركعتين بتدبُّر وتفكر، فيا لها من لحظةٍ ما أصفاها من كدر المخالطات، وأقذار الرياء»(١).

وقال الحسن البصري - رحمه الله -: «إن المؤمن يفجأ الشيء يعجبه فيقول: والله! إني لأشتهيك وإنك لمن حاجتي، ولكن والله ما من صلة إليك، هيهات هيهات، حيل بيني وبينك. ويفرط منه الشيء فيرجع إلىٰ نفسه، فيقول: ما أردت إلىٰ هذا، والله! لا أعود إلىٰ هذا أبداً إن شاء الله. إن المؤمنين قوم أوثقهم القرآن وحال بينهم وبين هلكتهم، إن المؤمن أسير في الدنيا يسعىٰ في فكاك رقبته، لا يأمن شيئاً حتىٰ يلقىٰ الله، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه، في بصره، في لسانه، في جوارحه»(٢).

الدرجة الرابعة: استخراج الحِكَم واستنباط الأحكام:

مكانة هذه الدرجة:

١ - أنها من لوازم العلم:

يقول ابن كثير - رحمه الله -: «فالواجب علىٰ العلماء الكشف عن معاني

(١) الآداب الشرعية، ٢/ ٣٠١ - ٣١٠.

(٢) الزهد، لابن المبارك، ١٠٣.

كلام الله، وتفسير ذلك، وطلبه من مظانه، وتعلُّم ذلك وتعليمه، كما قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧] . . . فذم الله ـ تعالىٰ ـ أهل الكتاب قبلنا بإعراضهم عن كتاب الله . . . فعلينا ـ أيها المسلمون ـ أن ننتهي عما ذمهم الله ـ تعالىٰ ـ به، وأن نأتمر بما أمرنا الله من تعلُّم كتاب الله المنزل إلينا، وتعليمه وتفهُّمه وتفهيمه»[١].

٢ ـ أنها تدل على كمال القلب ونور البصيرة.

٣ ـ أنها تثمر في القلب حقائق الإيمان.

يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «التذكر والتفكر منزلتان يثمران أنواع المعارف وحقائق الإيمان والإحسان، والعارف لا يزال يعود بتذكُّره على تفكُّره؛ حتىٰ يفتح قفل قلبه بإذن الفتاح العليم، . . . واعلم أن الرجل قد يكون له قلب وقَّاد مليء باستخراج العبر واستنباط الحكم، فهذا قلبه يوقعه على التذكر والاعتبار؛ فإذا سمع الآيات كانت له نور على نور، وهؤلاء أكمل خلق الله وأعظمهم إيماناً وبصيرة»[٢]، وهو من كمال الإيمان ومحض العرفان[٣].

شروط الاستنباط واستخراج الأحكام:

١ ـ سلامة المقصد عند بيان الأحكام.

٢ ـ معرفة مواطن الاستنباط والنظر.

٣ ـ إتقان العلوم المؤهِّلة للاستنباط.

٤ ـ الاعتماد على الحجة.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ١/ ٨.

(٢) مدارج السالكين، ١/ ٤٤١ـ ٤٤٣.

(٣) الإتقان، ٢/ ٢٣٤.

٥ ـ مراعاة مقاصد الشريعة وغاية القرآن.

بين التفسير والتأويل:

قال الثعلبي: التفسير: بيان وضع اللفظ إما حقيقة أو مجازاً، كتفسير الصراط بالطريق، والصيِّب بالمطر. والتأويل: تفسير باطن اللفظ مأخوذ من الأول، وهو الرجوع لعاقبة الأمر، مثاله قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤] تفسيره: من الرصد، يقال: رصدته: رقبته. المرصاد مفعال منه، وتأويله: التحذير من التهاون بأمر الله، والغفلة عن الأهبة والاستعداد للعرض عليه.

وقال الأصبهاني: اعلم أن التفسير في عُرف العلماء: كشف معاني القرآن. وبيان المراد: أعم من أن يكون بحسب اللفظ المشكل وغيره، وبحسب المعنىٰ الظاهر. والتأويل أكثره في الجمل.

وقيل: التفسير يتعلق بالرواية، والتأويل يتعلق بالدراية.

وقيل: ما وقع مبيناً في كتاب الله، ومعيناً في صحيح السنَّة، سمّي تفسيراً لأن معناه قد ظهر ووضح، وليس لأحد أن يتعرض إليه باجتهاد ولا غيره، بل يحمله علىٰ المعنىٰ الذي ورد لا يتعداه. والتأويل: ما استنبطه العلماء العاملون لمعنىٰ الخطاب، الماهرون في آلات العلوم.

وقال البغوي والكواشي: التأويل صرف الآية إلىٰ معنىٰ موافق لما قبلها وما بعدها تحتمله الآية، غير مخالف للكتاب والسنَّة، من طريق الاستنباط[1].

الطريق إلى استنباط الحِكَم واستخراج الأحكام[2]:

يقول الشاطبي ـ رحمه الله ـ: «الاعتبار بالقرآن قلَّما يجيده إلا من كان من

---

(١) انظر الأقوال السابقة في: الإتقان، ٢ / ٢٢١.

(٢) ولبيان طرق التفسير انظر: (مقدمة في أصول التفسير)، لشيخ الإسلام، وهي ضمن الفتاوىٰ، ١٣ / ٣٦٣؛ و(تفسير القرطبي)، ١ / ٣٣؛ و(تفسير الطبري)، ١/ ٧٣، ٩٢؛ و (التبيان)، للنووي، ص ١١٥؛ و (البرهان)، للزركشي، ٢ / ١٦٤؛ و (الإتقان)، للسيوطي، ٢ / ٣٠٩، ومقدمة (تفسير ابن كثير)، ص ١٣؛ و(جامع الأصول)، ٢ / ٤.

أهله عملاً به، فلا يخرجون عند الاعتبار فيه عن حدوده، كما لم يخرجوا في العمل به والتخلُّق بأخلاقه عن حدوده، بل تنفتح لهم أبواب الفهم فيه على توازي أحكامه»[١].

قال السيوطي: «الطريق في تحصيله: ارتكاب الأسباب الموجبة له من العمل والزهد»[٢].

وقال الشافعي - رحمه الله -: «استعينوا على الكلام بالصمت، وعلى الاستنباط بالفكرة»[٣].

وعن استنباط الحِكَم والإشارات واللطائف، والدلائل التي لم يعرج في اللفظ على ذكرها، يقول ابن القيم - رحمه الله -: «وأنت إذا تأملت الآية حقها، ودلالة اللفظ، وإماءته وإشارته وتنبيهه، وقياس الشيء على نظيره، واعتباره بمُشاكله، وتأملت المشابهة التي عقدها الله وربطها بين الظاهر والباطن، فهمت هذه المعاني كلها، وبالله التوفيق»[٤].

ويقول السعدي - رحمه الله -: «إذا فهمت ما دلَّت عليه الآيات الكريمات من المعاني مطابقة وتضمناً، فاعلم أن لوازم هذه المعاني[٥]، وما لا تتم إلا به، وشروطها وتوابعها تابع للحكم؛ فما لا يتم الخبر إلا به فهو تابع للخبر، وما لا يتم الحكم إلا به فهو تابع للحكم. وأن حذف المتعلقات من مفعولات وغيرها يدل على تعميم المعنى لأن هذا من أعظم فوائد الحذف، وأنه لا يجوز حذف ما لا

(١) الموافقات: ٣/ ٨٤٩.
(٢) الإتقان، ٢ / ٢٣١.
(٣) مفتاح دار السعادة، ص ٢١٥.
(٤) التبيان في أقسام القرآن، ص ١٤٥.
(٥) دلالة اللفظ تنقسم عند الأصوليين إلى ثلاث أقسام: دلالة المطابقة، ودلالة التضمين، ودلالة الالتزام. ومبحث الكناية في علم البلاغة مبني على دلالة الالتزام، انظر: إتحاف ذوي البصائر بشرح روضة الناظر، ١ / ٢١٣، للنملة، والإتقان للسيوطي، ٢ / ٦١، النوع الرابع والخمسون: (في كنايته وتعريضه)؛ ومقدمة (أحكام من القرآن الكريم)، لابن عثيمين - رحمه الله -.

يدل عليه السياق اللفظي والقرينة الحالية[١]. وهذه قاعدة من أجلّ قواعد التفسير وأنفعها، وتستدعي قوة فكر وحسن تدبر وصحة قصد؛ فإن الذي أنزله للهدىٰ والرحمة هو العالم بكل شيء الذي أحاط علمه بما تكن الصدور، وبما تضمنه القرآن من المعاني، وما يتبعها وما يتقدمها وتتوقف هي عليه؛ ولهذا أجمع العلماء علىٰ الاستدلال باللوازم في كلام الله لهذا السبب.

وأكثِر من هذا، وداوم عليه حتىٰ يصير لك ملكة جيدة في الغوص علىٰ المعاني الدقيقة؛ فإن القرآن حق، ولازم الحق حق، وما يتوقف علىٰ الحق حق، وما يتفرع من الحق حق، وذلك حق ولا بد؛ فمن وفق لهذه الطريقة وأعطاه الله توفيقاً ونوراً[٢]، انفتحت له في القرآن العلوم النافعة، والمعارف الجلية، والأخلاق السامية، والآداب الكريمة العالية»[٣].

ومن أساليب الاستنباط: اعتبار القارئ بما هو أولىٰ به وأحرىٰ بحاله، كما في مثل قوله - تعالىٰ -: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [**الجمعة**: ٥]؛ فإن هذا تشبيه لقوم مضوا، لكنه تحذير وتنبيه لكل قارئ للقرآن، ولذلك يقول القرطبي - رحمه الله -: «وفي هذا تنبيه من الله - تعالىٰ - لمن حمل الكتاب أن يتعلم معانيه ويعلم ما فيه؛ لئلا يلحقه من الذم ما لحق هؤلاء»[٤]. وهذا يجري في كل عيب ونقص توصف به الأمم الظالمة وأعيان الخاسرين.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ١٥، وقد فصل في مسألة الحذف الميداني في كتابه (قواعد التدبر) في القاعدة العاشرة: (حول البحث عن المحاذيف للإيجاز)، ص ٦٩، وأحال علىٰ كتاب العز بن عبد السلام: (الإشارة إلىٰ الإيجاز في بعض أنواع المجاز)، الباب الأول.

(٢) وممن اشتهر بهذا ابن القيم - رحمه الله - في مواطن كثيرة في كتبه، منها (التبيان في أقسام القرآن)، و (بدائع التفسير)، و(مفتاح دار السعادة)، و (طريق الهجرتين)، و (مدارج السالكين)، وقد تميز - رحمه الله - بإتقانه للأصول، فمثله حري أن يوفق للصواب، ولا يكون قصوره إلا قصور المجتهد المأجور، ثم إنه يصنف الأقوال المأثورة، ويربط بينها، ويستنبط منها، وكذلك فإنه يعود باستنباطاته إلىٰ ما ينور بصيرة العقل، ويصلح القلب ويهديه، ويشفيه من أمراض الشبهات والشهوات.

(٣) انظر: (القواعد الحسان لتفسير القرآن)، القاعدة الحادية عشرة، ص ٢٨، وذكر لهذه القاعدة عدة أمثلة، وانظر تفسيره للآية ٧ من سورة غافر، ص ٧٣٣.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، ١٨/ ٩٤.

وكذلك في قوله ـ سبحانه ـ: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾ [غافر: ٥٥]؛ فإنها وإن كانت خطاباً للنبي ﷺ، فإنَّ فحوى الخطاب لغيره أحرى وأولى، ولذلك قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسير الآية: «هذا تهييج للأمة على الاستغفار»(١).

ومثل ذلك ما قاله بعض الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ عن سورة النصر حيث قالوا: «أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا»(٢)، والخطاب في السورة للنبي ﷺ ومع ذلك فهموا أن الأمر لعامة الأمة.

ومن ميادين الاستنباط: معرفة موضوع السورة، كما قال ابن عباس عن سورة النصر: «أنها نعيت إلى رسول الله ﷺ نفسه»(٣). قال ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ: «وفيه جواز تأويل القرآن بما يفهم من الإشارات. وإنما يتمكن من ذلك من رسخت قدمه في العلم؛ ولهذا قال علي ـ رضي الله تعالى عنه ـ: أو فهماً يؤتيه الله رجلاً في القرآن»(٤).

ومن ميادين الاستنباط: النظر في المناسبة بين الألفاظ في الآية، والنظر في المناسبة بين الآيات في السورة.

قال الزركشي ـ رحمه الله ـ: «المناسبات علم شريف تحرز به العقول، ويعرف به قدر القائل فيما يقول»(٥).

ومما يدخل في الاستنباط: النظر في أسرار التشابه، والاختلاف بين ألفاظ الآيات(٦).

---

(١) تفسير ابن كثير، ٤/ ٨٦.
(٢) رواه البخاري، رقم ٤٩٧٠، والترمذي، رقم ٣٣٥٩، وسيأتي ذكر أقوالهم عن السورة، ص ١٤٧، ١٥٠.
(٣) رواه البخاري، رقم ٤٩٦٩؛ ومسلم، رقم ٤٩٧٠.
(٤) الفتح، ٨/ ٧٣٦.
(٥) البرهان في علوم القرآن، النوع الثاني: معرفة المناسبات بين الآيات، ١/ ٦١. وينظر النوع الثاني والستون: في مناسبة الآيات والسور، من كتاب الإتقان للسيوطي، ٢/ ١٣٨، وسيأتي، ص ١٥٠ ذكر مثالين على ذلك.
(٦) ينظر في ذلك: النوع الثالث والستون: في الآيات المشتبهات، من كتاب الإتقان، للسيوطي، ٢/ ١٤٦، والنوع الخامس: علم المتشابه، من كتاب البرهان، للزركشي، ١/ ١٤٥.

المبحث السادس

علاقة القارئ بالقرآن

علاقة القارئ بالقرآن

من الأمور التي تحدد علاقة القارئ بالقرآن بُعد المعايشة وبُعد اللغة؛ وتوضيح ذلك فيما يأتي:

بُعد المعايشة:

وذلك أن الإنسان الذي يعيش مع القرآن لا يحتاج إلا إلى إيضاحات قليلة وتفسير ألفاظ معدودة، ويدرك مقاصد القرآن بيسر وسهولة، وهذا كحال الصحابة رضي الله عنهم. وأما الإنسان البعيد عن القرآن فإنه يحتاج إلى توضيح وتفصيل، وربما أشكلت عليه الأمور الواضحات. وحال الأول كمن يسعى في بلدته، فإنه يمضي في طريقه إلى كل مكان بلا نظر إلى الإرشادات ودون سؤال، وربما اكتفى بتلميحات سريعة فينال مطلوبه بيسر وسهولة. وحال الثاني كالغريب الذي لا تكفيه الإرشادات المكتوبة، وربما سأل كثيراً، وضل كثيراً، واحتار كثيراً، وغابت عنه حاجته وهو منها قريب.

قال ابن القيم - رحمه الله - في قوله - تعالى -: ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ** ﴾ [ق: ٣٧]: «من الناس من يكون حي القلب واعيه تام الفطرة، فإذا فكر بقلبه وجال بفكره دلَّه قلبه وعقله على صحة القرآن وأنه حق، وشهد قلبه بما أخبر القرآن، فكان ورود القرآن على قلبه نوراً على نور الفطرة، وهذا وصف الذين قيل فيهم: ﴿ **وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ** ﴾ [سبأ: ٦]، وقوله: ﴿ **نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ** ﴾ [النور: ٣٥]، فهذا نور الفطرة على نور الوحي، وهذا صاحب القلب الحي الواعي، يجمع بين قلبه وبين معاني القرآن فيجدها كأنها قد كتبت فيه فهو يقرؤها عن ظهر قلب. ومن الناس من لا يكون تام الاستعداد واعي القلب كامل الحياة؛ فيحتاج إلى شاهد يميز له بين

الحق والباطل، ولم تبلغ حياة قلبه ونوره وزكاء فطرته مبلغ القلب الحي الواعي، فطريق وصول هدايته أن يفرغ سمعه للكلام، وقلبه لتأمله والتفكر فيه وتعقّل معانيه، فيعلم حينئذ أنه الحق»(١).

بُعد اللغة:

وذلك أن الذي يعرف اللغة العربية، وأساليب القرآن، ويتعامل بها كثيراً في كلامه؛ فإنه لا يجد عناء في معرفة دلائل ألفاظ القرآن، وإدراك المراد من الآيات، وتصور المعنى المقصود في الآية. وأما من لا يعرف العربية جيداً، ونصيبٌ كبيرٌ مما يعرفه لا يستخدمه في كلامه؛ فإنه لا يتصور القرآن بلا تفسير، وكم تمر عليه ألفاظ غريبة على سمعه أو جملٌ تحتاج في نظره إلى تقديم وتأخير، أو احتاج إلى تكلفٍ لتقدير محذوفٍ، أو تمر عليه معان متوالية إن سعى جهده إلى تصورها؛ فإنه لا يجد بينها علاقةً حاضرةً في ذهنه، فلا يملك أن يصف تلك المعاني العظيمة إلا بالدرر المتناثرة(٢).

وحال الأول: حال من يسمع المثل السائر: «العلم في الصغر كالنقش في الحجر»، فيدرك المعنى المقصود، ولا يخطر على باله البحث عن معاني المفردات، أو تعريف العلم أو المقصود بالمثل. وأما حال الثاني: فإنه لبعده عن العربية يسأل عن معنى العلم، وأي علم، وكيف يكون العلم في الصغر، وعن حد الصغر، وما معنى النقش، ولماذا ذكر الحجر؟ ويجتهد في البحث عن محذوفٍ مقدّرٍ، كأن يقول: إن بقاء العلم النافع الذي تعلمه الإنسان في صغره يبقى كبقاء النقش؛ وهو الحفر الجميل في الحجر الصلب . . ونحو ذلك. فبُعده عن اللغة العربية أجهده في البحث عن المقصود، وأطال في تفسير الألفاظ، وفي

(١) باختصار من كتاب: (الفوائد)، ص ٥، انظر: مدارج السالكين، ١ / ٤٤٢.

(٢) انظر في ذلك كتاب: (مبادئ أساسية لفهم القرآن)، للمودودي رحمه الله، ص ٩، و كتاب: (قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل)، للميداني، القاعدة الأولى والثانية، ص ٩، ١٦.

تكلف تقدير ما يظنه محذوفاً، ومع هذا كله لم يحصل له من الفهم والإدراك كما حصل للأول.

أهمية معرفة اللغة العربية لتدبر القرآن:

إن جزءاً كبيراً من معاني ألفاظ القرآن وتراكيبه مما يعرف باللسان العربي، حيث قال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: «التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله»[(١)].

ولذلك قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: «ومعلوم أن تعلم العربية وتعليمها فرض على الكفاية، وكان السلف يؤدبون أولادهم على اللحن، فنحن مأمورون أمر إيجاب أو أمر استحباب أن نحفظ القانون العربي، ونصلح الألسن المائلة عنه، فيحفظ لنا طريقة فهم الكتاب والسنَّة»[(٢)].

وقال ابن عطية ـ رحمه الله ـ: «إعراب القرآن أصل في الشريعة؛ لأن بذلك تقوم معانيه التي هي الشرع»[(٣)].

يقول الشافعي ـ رحمه الله ـ: «فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده؛ حتى يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، ويتلو به

---

(١) الطبري، ١ / ٧٥، الأثر رقم ٧١، وقد بين المقصود من كل وجهة، ص ٧٣ـ ٩٣، وانظر: مقدمة في أصول التفسير، لشيخ الإسلام، ص ١١٥؛ والبرهان، للزركشي، ٢ / ١٦٤؛ والإتقان، ٢ / ٢٢٨ـ ٢٣٨، ٣٠٩.

(٢) الفتاوى، ٢٣ / ٢٥٢.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ١ / ٢٤، وذكر القرطبي ـ رحمه الله ـ قول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: (إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر؛ فإن الشعر ديوان العرب)، ثم ذكر نماذج من تمثله بأشعار العرب عند تفسير ألفاظ القرآن، وذكر السيوطي ـ رحمه الله ـ رواية ابن عباس بتمامها في الإتقان، ١ / ١٥٨.

القرآن . . . وما ازداد من العلم باللسان الذي جعله الله لسان من ختم به نبوته، وأنزل به آخر كتبه، كان خيراً له»[١].

ولذلك كانت معرفة العربية شرطاً لمن أراد تفسير القرآن، قال مالك ـ رحمه الله ـ: «لا أوتى برجل غير عالم بلغة العرب يفسر كتاب الله إلا جعلته نكالاً»[٢].

وعن الغاية من تعلم اللغة يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «والعربية إنما احتاج المسلمون إليها لأجل خطاب الرسول بها، فإذا أعرض عن هذا الأصل كان أهل العربية بمنزلة أصحاب المعلقات السبع، ونحوهم من حطب جهنم»[٣]؛ ولهذا علم أن تعلم قواعد اللغة العربية، وسبر فنونها وضبط أصولها؛ إنما هو لمعرفة المقصود من كلام الله عز وجل، وكلام رسول الله ﷺ، وما سميت مع غيرها علوم الآلة إلا لهذا الأمر، ومن فاته تحقيق هذا المقصد مع جهد وتعب وتعمق وتوسع؛ فقد أمضى عمره في غير ما طائل، وغاية ما عنده أنه يجيد تعليمها لغيره.

لماذا نحتاج إلى تفسير للقرآن؟

ومن خلال تصورنا لبُعد المعايشة، وبُعد اللغة، سندرك سر فهم الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ للقرآن دون الحاجة إلى تفسير إلا في النزر اليسير، وسندرك عظيم حاجتنا إلى تفسير مفصل لآيات القرآن الكريم؛ على الرغم من أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ وصفه بقوله: ﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، وقوله: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣]، ونحوها من الآيات التي تبين إحكامه ويسره، وأنه تبيانٌ

(١) الرسالة، ص ٤٩.
(٢) الإتقان، ٢/ ٢٢٩.
(٣) الفتاوى، ١٣/ ٢٠٧.

لكل شيء . وهكذا تزيد حاجة الناس للتفسير كلما بعدوا عن معايشة هديه ، أو هجروا لغته .

وبناءً على ما تقدم فإنه يقال : حينما يجد القارئ في القرآن وصفاً أو معنىً لا يدركه ؛ فلا يظن أنه سيجد في التفسير لفظاً أجزل ، أو أدق ، أو أجمل أو أوضح أو ما يدانيه ، بل غاية ما يذكر تفسيراً للقرآن إنما هو توضيح وتقريب للمعنى لمن بعد عن القرآن معايشةً أو لغةً ، باستثناء ما يكون من باب تفسير القرآن بالقرآن ، أو بالسنَّة الصحيحة ، أو ما في حكمها . ومن الأمثلة الصريحة على ذلك ما قاله الشافعي - رحمه الله - حين نقل تفسير مجاهد لقوله - تعالى - : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف : ٤٤] ، قال مجاهد : يقال : ممن الرجل؟ فيقول : من العرب . فيقال : من أي العرب؟ فيقول : من قريش» . قال الشافعي - رحمه الله - : «وما قال مجاهد من هذا بيِّن في الآية ، مستغنى فيه بالتنزيل عن التفسير»[1] .

ولو علم القارئ عين حقيقية المعنى ، أو شاهد الموصوف ، لما ابتغى للفظ القرآن زيادةً ، ولا عن أسلوبه صياغةً ، ولا على تركيبه استدراكاً ، ولا تقديراً لمحذوف ، ولم يعدل عن القرآن بدلاً[2] . لذلك قال شيخ الإسلام - رحمه الله -

---

(١) الرسالة ، ص ١٤ .

(٢) ويقول ابن القيم - رحمه الله - عن كتب الكلام : (واعلم أن ما عداه من كتب الناس ، وآرائهم ، ومعقولاتهم : بين علوم لا ثقة بها وإنما هي آراء وتقليد ، وبين ظنون كاذبة لا تغني من الحق شيئاً ، وبين أمور صحيحة لا منفعة للقلب فيها ، وبين علوم صحيحة قد وعروا الطريق إلى تحصيلها ، وأطالوا الكلام في إثباتها مع قلة نفعها . . . وأحسن ما عند المتكلمين وغيرهم فهو في القرآن أصح تقريراً وأحسن تفسيراً ، فليس عندهم إلا التكلف والتطويل والتعقيد . . . فهم يزعمون أنهم يدفعون بالذي وضعوه الشبه والشكوك ، والفاضل الذكي يعلم أن الشبه والشكوك زادت بذلك ، ومن المحال أن لا يحصل الشفاء والهدى والعلم واليقين من كتاب الله وكلام رسوله ويحصل من هؤلاء) ، إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ، ١ / ٥٤ .

عن الألفاظ التي يفسر بها ألفاظ القرآن: «ألفاظ متقاربة لا مترادفة؛ فإن الترادف في اللغة قليل[١]، وأما في ألفاظ القرآن فإما نادر أو معدوم، وقلَّ أن يعبَّر عن لفظ واحد يؤدي جميع معناه، بل يكون فيه تقريب لمعناه. وهذا من أسباب إعجاز القرآن؛ فإذا قال قائل: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ [الطور: ٩]، إن المور: هو الحركة. كان تقريباً؛ إذ المور حركة خفيفة سريعة. فهذا كله تقريب لا تحقيق. والعرب تضمن الفعل[٢]، وتعديه تعدية، ومن هنا غلط من جعل بعض الحروف تقوم مقام بعض، كما يقولون في قوله: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ﴾ [ص: ٢٤] أن معنى (إلى): مع. والتحقيق: ما قاله النحاة البصريون من التضمين، فسؤال النعجة يتضمن جمعها وضمها إلى نعاجه. ومن قال معنى ﴿لَا رَيْبَ﴾ [البقرة: ٢] : لا شك. فهذا تقريب، وإلا فالريب فيه اضطراب وحركة، ولفظ الشك وإن قيل إنه يستلزم هذا المعنى لكن لفظه لا يدل عليه. وجَمعُ عبارات السلف في مثل هذا نافع جداً؛ فإن مجموع عباراتهم أدل على المقصود من عبارة أو عبارتين»[٣].

---

(١) ولمعرفة الفروق اللغوية بين المترادفات المتقاربة انظر كتاب: (الفروق اللغوية)، لأبي هلال العسكري، و (الإتقان)، قاعدة: في الألفاظ التي يظن بها الترادف وليس منه، ١ / ٢٥٤.

(٢) وقد ذكر هشام الحمصي في كتابه: (قبس من الإعجاز) خمسة أمثلة، ص ٣٦، ثم قال: «ولا شك أن بحث التضمين يحتاج إليه كل واعظ أو معلم، ولا سيما من يُدرِّس التفسير لكتاب الله الكريم»، ص ٤٠.

(٣) باختصار من مقدمة في أصول التفسير، ص٥٢؛ وفي مجموع الفتاوى، ١٣ / ٣٤١، وانظر: القاعدة ١٨ (حول النظر في الألفاظ المتقاربة المعنى أو المترادفة)، من كتاب (قواعد التدبر الأمثل)، للميداني، ص ١١٧.

المبحث السابع

من سبل تدبُّر القرآن الكريم

من سبل تدبر القرآن الكريم

إن لتدبر القرآن سبلاً يحصِّل بها من أراد التدبُّر مبتغاه، ويجني بها قلبه لطائف معارف وأحوال ما كان ليحصل عليها، ولم تخطر له على بال؛ وبدون هذه السبل سيتعثر دون غايته، ويتعذر عليه مبتغاه، وإن أدرك شيئاً فإنما هو قليل لا يشفي له عليلاً ولا يروي له غليلاً. وفي ذلك يقول الزركشي - رحمه الله -: «مَنْ لم يكن له علمٌ، وفهمٌ، وتقوىٰ، وتدبرٌ لم يُدرِك مِن لذةِ القرآنِ شيئاً»[١]. وما يأتي تفصيل لبعض هذه السبل:

أولاً: معايشة معاني الآيات:

وهو من أعظم سبل تدبر القرآن إن لم يكن شرطاً له، ولذلك كان للصحابة - رضي الله عنهم - أوفر حظ وأعظم نصيب من تدبر القرآن «لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، فحصل لهم الفهم التام، والعلم الصحيح»[٢]، فلقد كانت الآيات تنزل في أمور باشروها بأيديهم أو أبصروها بأعينهم، أو خاضوا غمارها فعاشوا حلوها ومرها، وفرحها وحزنها، وتكبدوا معاناتها، وأدركوا ملابساتها؛ فكانت الآيات تقع في قلوبهم مواقعها، فعنها يصدرون، وإليها يردون ورود الظامئ إلىٰ الماء البارد. «إن هذا الشعور يفتح لهم من القرآن آفاقاً . . . لم تكن لتفتح عليهم لو أنهم قصدوا إليه بشعور البحث والدراسة والاطلاع، وكان ييسر لهم العمل، ويخفف عنهم ثقل التكاليف، ويخلط القرآن بذواتهم، ويحوله في نفوسهم وفي حياتهم إلىٰ منهج واقعي، وإلىٰ ثقافة متحركة لا تبقىٰ داخل الأذهان، ولا في بطون الصحائف؛ إنما تتحول

---

(١) البرهان، ٢ / ١٧١.

(٢) انظر: مقدمة في أصول التفسير، لشيخ الإسلام، ص ٩٥؛ وتفسير ابن كثير، ١ / ٩.

آثاراً وأحداثاً تحول خط سير الحياة، إن هذا القرآن لا يمنح كنوزه إلا لمن يقبل عليه بهذه الروح: روح المعرفة المنشئة للعمل»[١].

ولما كان القرآن نبراساً للصحابة - رضي الله عنهم - ولمن آمن بعدهم، فقد قلَّ فيه ذكر الأعيان، كالأسماء والأعداد والأماكن، والتي ربما تقصر معنى الآية على سبب نزولها، فكانت العبرة في أحكام الآيات عموم اللفظ لا خصوص السبب، كما هو متقرر عند العلماء.

فمن المجددين والأعلام من حمل همَّ الرسالة بعد الرعيل الأول، بعامة ملابساتها دعوةً وتعليماً وبذلاً، وصبراً ومعاناةً، وبلاءً وهجرةً، واضطهاداً وجهاداً، فله في معايشة القرآن ولذة قراءته، وفهم معانيه، وتدبر مقاصده حظاً وافراً، يفتح له في ذلك بحسب جهاده وبذله وعلمه ويقينه وصبره، وبحسب المواقف التي مرت به، وقد حكى القرآن نظائرها في حياة الأنبياء وأتباعهم، وكل مؤمن يحمل نصيباً من حمل رسالة القرآن؛ سيعيش مع الآيات تدبراً وتأثراً ما كان يعيشه في أرض الواقع؛ معاناةً وجهاداً ومواجهةً ودعوةً وبذلاً.

وكلما خلصت حياة الإنسان لله وتعلق قلبه بهمِّ الآخرة، وصفي من هموم الدنيا، وتطهر من لوثة تقديمها على الأخرى، سيجد أنساً بالقرآن لا ينتهي، ويوجز هذا المعنى عثمان بن عفان - رضي الله عنه - بقوله: «لو أن قلوبنا طهرت ما شبعت من كلام ربنا، وإني أكره أن يمر عليَّ يوم لا أنظر في المصحف»[٢].

ومن أراد العيش مع آيات القرآن، فلينظر ما في القرآن من غايات وتطلعات، وليفتش في نفسه عن واقع تلك التطلعات في حياته، وليتأمل وصف الله لتلك التطلعات فيمن باشرها من الأنبياء والصالحين قبله؛ فمن فعل ذلك

---

(١) معالم في الطريق، ص ١٥.

(٢) البيهقي في الأسماء والصفات، ص ٨٢؛ وأحمد في الزهد؛ وابن عساكر. انظر: الكنز، ١ / ١٢٥، ٢١٨؛ وحياة الصحابة، ٤ / ٢٣.

فسيجد من برد اليقين، والفصل المبين، والحكمة البالغة، ما ينشرح به صدره، وما يزيد معه يقينه، وسيدرك من المعاني ما لم يدركه قبل، ويجد للآيات تأثيراً في نفسه لم يقع له قبل ذلك، فيعيش المعاني عيشاً لا يعبّر عنه بوصف بل تدركه المشاعر، ويخفق له القلب وتتفاعل معه النفس.

ومن جملة تلك التطلعات دعوة الناس إلىٰ دين الله، ومعاناة تثبيت الفئة المؤمنة علىٰ دين الله، والتطلع إلىٰ الفرج والتمكين تحت سطوة الجاهلية وكيد أهلها، والتطلع إلىٰ النصر علىٰ الأعداء.

«ولا يفهم النصوص القرآنية حق الفهم إلا من يواجه مثل الظروف التي واجهتها أول مرة، هنا تتفتح النصوص عن رصيدها المذخور، وتتفتح القلوب لإدراك مضامينها الكاملة، وهنا تتحول تلك النصوص من كلمات وسطور إلىٰ قوىٰ وطاقات، وتنتفض الأحداث والوقائع المصورة فيها، تنتفض خلائق حية موحية، دافعة، دافقة، تعمل في واقع الحياة، وتدفع بها إلىٰ حركة حقيقية في عالم الواقع وعالم الضمير. . .

وإن الإنسان ليقرأ النص القرآني مئات المرات ثم يقف الموقف أو يواجه الحادث؛ فإذا النص القرآني جديد يوحي إليه بما لم يوح من قبل قط، ويجيب علىٰ السؤال الحائر، ويفتي في المشكلة المعقدة، ويكشف الطريق الخافي، ويرسم الاتجاه القاصد، ويفيء بالقلب إلىٰ اليقين الجازم في الأمر الذي يواجهه، وإلىٰ الاطمئنان العميق، وليس ذلك لغير القرآن في قديم ولا حديث»[1].

ومن صور المعايشة أن تصور الآيات شعوراً وحالة تمر بالقارئ تصويراً يكشف الغم ويزيل الهم، وينقل القلب من عالم الدنيا والضيق والألم إلىٰ عالم

---

(١) الظلال، ج ٥، ص ٢٨٣٦.

أوسع، وتصورٍ أرحب، ومثيل ذلك ما حصل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ حيث يقول عبد الله بن شداد: «سمعت نشيج عمر ـ رضي الله عنه ـ وأنا في آخر الصفوف وهو يقرأ: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]»(١).

ثانياً: تصور حال الدعوة عند نزول الآيات:

ومن لم يتمكن من العيش مع معاني القرآن كلها، وما فيها من جهاد ودعوة وبذل ونفقة وتضحية ومواجهة للباطل، فلا أقل أن يتصور حال الدعوة عند نزول الآيات، فحينها سوف تتغير نظرته وتعامله مع تلك الألفاظ، وسوف تصبح في ذهنه حية متحركة وهو يتصور أثرها على رسول الله ﷺ وعلى الصحابة رضي الله عنهم؛ فكم من سُوَرٍ مكيَّة قصيرة كانت برداً وسلاماً على قلوب الصحابة، وفتحاً لآفاق عظيمة في نفوسهم وهم يواجهون الجاهلية بظلمها وتهديدها ومكرها وكيدها، وإن قلوبهم لتخفق فرحاً وسروراً مع كل كلمة، وإن نفوسهم لتزيد إيماناً ويقيناً مع كل آية على الرغم من قصرها، ولك أن تتصور الآيات التي قصَّها الله عما جرى للأنبياء من الأذى والكيد وهم يواجهون المشهد يتكرر أمامهم، فما يقال لهم إلا ما قد قيل للرسل وأتباع الرسل من قبل، ولك أن تنظر إلى ما يجول في قلوبهم وهم يسمعون وعد الله بالنصر وحسن العاقبة وهم ما زالوا في مكة لم يشهدوا بدراً ولم يخوضوا القادسية.

ولئن كانت هناك أسباب خاصة لنزول بعض الآيات والسور يلزم معرفتها لمعرفة دلائل الآيات ومقاصدها؛ فإن معرفة حالة الدعوة عند نزول الآيات هو سبب النزول العام الذي ينبغي أن يُستحضر كما يستحضر السبب الخاص، من

(١) علَّقه البخاري، ٢ / ١٧٢؛ ووصله سعيد بن منصور؛ وزاد: «في صلاة الصبح»؛ وأخرجه المنذري؛ وعبد الله بن شداد تابعي كبير، لأبيه صحبة، قال البغوي: «والنشيج: صوت معه توجع، كما يردد الصبي بكاءه في صدره». شرح السنة، ٣ / ٢٤٥. وانظر: مختصر قيام الليل، ص ١٤٢.

أجل تدبر أمثل لمقاصد الآيات وحكمها وأحكامها. فإن تصور حال الدعوة حين نزول الآيات هو المقصود الأهم في معرفة أسباب النزول، ومعرفة أن الآيات مكيّة أو مدنيّة، «فينبغي أن يُعرف المكي من المدني؛ ليفرق بذلك ما خاطب الله به عباده في أول الإسلام وما ندبهم إليه في آخر الإسلام»(١)، «فالنظر في سياق الآيات، مع العلم بأحوال الرسول ﷺ وسيرته مع أصحابه وأعدائه وقت نزوله، من أعظم ما يعين على معرفته وفهم المراد منه، خصوصاً إذا انضم إلى ذلك معرفة علوم العربية على اختلاف أنواعها»(٢).

قال ابن القيم - رحمه الله -: «إذا أردت الانتفاع بالقرآن، فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألق سمعك، واحضر حضور من يُخاطِبُه به من تكلم به - سبحانه - منه إليه؛ فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله»(٣).

وقال الشاطبي - رحمه الله -: «معرفة أسباب النزول لازمة لمن أراد علم القرآن، والدليل على ذلك أمران:

أحدهما: أن علم المعاني والبيان الذي يُعرف به إعجاز نظم القرآن، فضلاً عن معرفة مقاصد كلام العرب، إنما مداره على معرفة مقتضيات الأحوال: حال الخطاب من جهة نفس الخطاب أو المخاطِب أو المخاطَب أو الجميع؛ إذ الكلام الواحد يختلف فهمه بحسب حالين، وبحسب مخاطبين، وبحسب غير ذلك، كالاستفهام لفظه واحد، ويدخله معان أخر من تقرير وتوبيخ وغير ذلك. وكالأمر يدخله معنى الإباحة والتهديد، والتعجيز، وأشباهها، ولا يدل على معناها المراد إلا الأمور الخارجة، وعمدتها مقتضيات الأحوال، وليس كل حال تنقل، ولا كل قرينة تقترن بنفس الكلام المنقول، وإذا فات نقل بعض القرائن

(١) الجامع لأحكام القرآن، ١ / ٢١.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص ١٢.
(٣) الفوائد، ص ١.

الدالة فات فهم الكلام جملة، أو فهم شيء منه. ومعرفة الأسباب رافعة لكل مشكل في هذا النمط، فهي من المهمات في فهم الكتاب ولا بد، ومعنى معرفة السبب هو معنى معرفة مقتضى الحال.

الوجه الثاني: وهو أن الجهل بأسباب التنزيل موقع في الشبه والإشكالات، ومُورِد للنصوص الظاهرة مَوردَ الإجمال حتى يقع الاختلاف»[١].

يقول الميداني في سياق بيانه لأهمية معرفة بيئة نزول النص ـ البشرية والزمانية والمكانية ـ: «على متدبر كتاب الله أن يضع في اعتباره لدى تدبر نص منه، ملاحظة الأمور التالية:

الأول: تصور العصر الإسلامي الأول...

الثاني: تصور الحالة النفسية والفكرية والاجتماعية التي كانوا عليها حين نزول الآيات...

الثالث: تصور الظرفين الزماني والمكاني ... فكثيراً ما يقع الباحث ـ عن معنى نص ـ في الخطأ؛ لأنه فهم النص وهو يضع في اعتباره واقع حال المجتمع الذي يعيش فيه، والبيئة المحيطة به، لا واقع حال المجتمع الذي نزل فيه النص ... وتصور الظرفين الزماني والمكاني اللذين أنزلت فيهما الآيات ... يقدم للمتدبر نفعاً جليلاً، ويهديه إلى مفاهيم أكثر دقة، وأقرب إلى المراد؛ وذلك لأن من الأساليب البيانية ما يلائم ظرفاً من الظروف»[٢].

وهناك وجه آخر لا يستفاد إلا من تصور حال الدعوة عند نزول القرآن، هو تأمل حال الصحابة وهم في دور مكة يتلون الآيات التي تصف كفار قريش، ولك أن تتخيل خفض أصواتهم، وحذرهم الشديد وهم يتداولون سورة

---

(١) الموافقات، ص ٨٠٦.

(٢) قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله، ص ٢٣.

(المسد)، وقلوبهم تخفق ترقباً أن يُتهم أحدُهم بتعليم هذه السورة، وهم يشعرون في نفس الوقت بالاستعلاء وعزة الإيمان حين يرددون كلام الله وفيه تهكم برموز الجاهلية، وبأحد أعينها المتنفذين. ويتكرر هذا الشعور بتكرر المشهد حين نتصور تلقيهم لآيات أخر تلمز الكفار، أو تتهكم بعقولهم، أو تحقر من شأنهم، كما في سورة العصر، أو الكوثر، أو الهمزة، أو المدثر، أو في مثل قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، أو في قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [الفرقان: ٤٤]. وكذلك يمكن تصور حالة الصحابة في المدينة وهم يقرؤون أمثال قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [محمد: ١٢].

ثالثاً: فهم المعاني ودلائل الألفاظ:

وفيه المسائل الآتية:

١ ـ الحث على فهم كتاب الله:

يقول ـ جل ذكره ـ: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩]، يستنبط القرطبي ـ رحمه الله ـ من هذه الآية وجوب معرفة معاني القرآن(١). ويقول ـ رحمه الله ـ: «ودلَّ قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾ [النساء: ٨٢] علىٰ وجوب التدبر في القرآن ليعرف معناه، وفيه دليل علىٰ الأمر بالنظر والاستدلال»(٢).

والله ـ سبحانه ـ يقول: ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة:

(١) الجامع لأحكام القرآن، ١٥ / ١٩٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، ٥ / ٢٩٠.

٢٤٢] ، ويقول ـ سبحانه ـ: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٧، ٢٨] . يقول ابن جرير الطبري ـ رحمه الله ـ معلقاً على هاتين الآيتين: «في حث الله ـ عز وجل ـ عباده على الاعتبار بما في آي القرآن من المواعظ والبينات . . . ما يدل على أن عليهم معرفة تأويل ما لم يحجب عنهم تأويله من آيه؛ لأنه محال أن يقال لمن لا يَفهم ما يقال ولا يَعقل تأويله: اعتبر بما لا فهم لك به . . . إلا على معنى الأمر بأن يفهمه ويفقهه، ثم يتدبره ويعتبر به»(١) .

يقول الزركشي ـ رحمه الله ـ: «القرآن كله لم ينزله منزله ـ تعالى ـ إلا لِيُفْهِمَه، ويُعلم ويُفهم؛ ولذلك خاطب به أولي الألباب الذين يعقلون، والذين يعلمون، والذين يفقهون، والذين يتفكرون؛ ﴿لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩] »(٢) .

ولذلك يقول الآجري ـ رحمه الله ـ عن قارئ القرآن: «لا يرضى لنفسه أن يؤدي ما فرض الله عليه بجهل، قد جعل العلم والفقه دليله إلى كل خير، وإذا درس القرآن فبحضور وفهم وعقل، همته إيقاع الفهم لما ألزمه الله من اتباع ما أمر والانتهاء عما نهى، ليس همته: متى أختم السورة؟»(٣) .

ولذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «دخل في قوله ﷺ : (خيركم من تعلم القرآن وعلمه)(٤) تعليم حروفه ومعانيه جميعاً، بل تعلم معانيه هو المقصود الأول من تعلم حروفه، وذلك الذي يزيد الإيمان كما قال جندب بن

(١) تفسير الطبري، ١/ ٦١، بتصرف.

(٢) البرهان، ٢/ ١٦٠ .

(٣) أخلاق حملة القرآن ، ص ٤٠ .

(٤) الحديث رواه عثمان بن عفان رضي الله عنه، البخاري، ٩/ ٦٦؛ والترمذي، رقم ٢٩٠٩؛ وأبو داود، رقم ١٤٥٢ .

عبد الله، وعبد الله بن عمر وغيرهما: تعلمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيماناً. وأنتم تعلمتم القرآن ثم تتعلمون الإيمان. ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة»(١).

وقال ـ رحمه الله تعالىٰ ـ في قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [النساء: ٨٢]: «وتدبُّر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن؛ ولذلك قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، وعقل الكلام متضمن لفهمه، ومن المعلوم أن كل كلام فالمقصود منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه، فالقرآن أولىٰ بذلك»(٢).

قال الشنقيطي ـ رحمه الله ـ: «فإذا علمت ـ أيها المسلم ـ أن هذا القرآن العظيم؛ هو النور الذي أنزله الله ليستضاء به ويهدي بهداه في أرضه، فكيف ترضىٰ لبصيرتك أن تعمىٰ عن النور... يجب عليك الجد والاجتهاد في تعلم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وبالوسائل النافعة المنتجة، والعمل بكل ما علمك الله منهما علماً صحيحاً»(٣).

ولأهمية هذا الأمر عدّ ابن مفلح ـ رحمه الله ـ أن من آداب متعلم القرآن: «أن تكون قراءته عن العدول الصالحين العارفين معانيها»(٤).

٢ ـ فضل فهم كتاب الله وتعلم أحكامه:

ويظهر ذلك في حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: ضمَّني رسول الله ﷺ وقال: «اللهم علِّمه الكتاب»(٥)، وفي رواية «علِّمه الحكمة»(٦).

---

(١) الفتاوىٰ، ١٣ / ٣٠٤.
(٢) مقدمة في أصول التفسير، مجموع الفتاوىٰ، ١٣ / ٣٣٢.
(٣) أضواء البيان، ٧ / ٤٣٨.
(٤) الآداب الشرعية، ٢ / ٣٠٠.
(٥) رواه البخاري، رقم ٧٥، الفتح، ١ / ١٦٩.
(٦) رواه البخاري، رقم ٣٧٥٦.

قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ: «والمراد بالتعلُّم ما هو أعم من حفظه، واختلف الشرّاح في المراد بالحكمة هنا، فقيل: القرآن. وقيل: الإصابة في القرآن. وقيل: الفهم عن الله. والأقرب أن المراد بها: الفهم في القرآن»(١).

ويقول السيوطي ـ رحمه الله ـ في معنىٰ الحكمة في قوله ـ تعالىٰ ـ: **﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾** [**البقرة**: ٢٦٩]: «قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هي المعرفة بالقرآن، ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه، وأمثاله. وعن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: الحكمة قراءة القرآن، والفكرة فيه. وكذا قال مجاهد وأبو العالية وقتادة. وقال عمرو بن مرة: ما مررت بآية في كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنتني؛ لأني سمعت الله يقول: **﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾** [**العنكبوت**: ٤٣]. وقد أجمع العلماء أن التفسير من فروض الكفايات وأجل العلوم، قال الأصبهاني: أشرف العلوم(٢) صناعة يتعاطاها الإنسان: تفسير القرآن؛ لأن موضوعه كلام الله الذي هو ينبوع كل حكمة، ومعدن كل فضيلة. وأما من جهة الغرض فلأن الغرض منه هو الاعتصام بالعروة الوثقىٰ، والوصول إلىٰ السعادة الحقيقية التي لا تفنىٰ. وأما من جهة شدة الحاجة إليه فلأن كل كمال ديني أو دنيوي عاجل أو آجل مفتقر إلىٰ علوم الشريعة والمعارف الدينية، وهي متوقفة علىٰ العلم بكتاب الله تعالىٰ»(٣).

وقال ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ: «لما كان القرآن العزيز أشرف العلوم، كان الفهم لمعانيه أوفىٰ الفهوم؛ لأن شرف العلم بشرف المعلوم»(٤).

---

(١) باختصار من فتح الباري، ١ / ١٧٠.

(٢) وقد بين الأصبهاني ـ رحمه الله ـ في كلامه أن شرف العلوم يكون بثلاثة أمور هي: موضوع العلم، وغرضه، وشدة الحاجة إليه.

(٣) الإتقان، ٢ / ٢٢٣، بتصرف.

(٤) زاد المسير في علم التفسير، ١ / ٣.

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ عن القرآن: «هو أعظم الكنوز، وطلسمه الغوص بالفكر إلى قرار معانيه»[١].

وقال في النونية:

فتدبر القرآن إن رمت الهدى فالعلم تحت تدبر القرآن[٢]

ويقول التابعي القاضي إياس بن معاوية ـ رحمه الله ـ: «مثل الذين يقرؤون القرآن ولا يعرفون التفسير، كمثل قوم جاءهم كتاب من ملكهم ليلاً، وليس عندهم مصباح فتداخلتهم روعة لا يدرون ما في الكتاب، ومثل الذي يعرف التفسير كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرؤوا ما في الكتاب»[٣].

ولقد عد البيهقي ـ رحمه الله ـ ذلك من شعب الإيمان فقال: «التاسع عشر: تعظيم القرآن المجيد، بتعلمه وتعليمه، وحفظ حدوده وأحكامه، وتعلم حلاله وحرامه»[٤].

«وقد أحسن القائل في نظمه في فضل العلم، وشرف الكتاب العزيز:

إن العلومَ وإن جلَّتْ محاسنُها فتاجها ما به الإيمانُ قد وجبَا

هو الكتابُ العزيزُ، الله يحفظه وبعد ذلك علم فرَّج الكربَا

واتل بفَهْم كتابَ الله، فيه أتتْ كلُّ العلومِ، تدبَّره ترَ العجبَا»[٥]

٣ ـ حرص السلف على تعلُّم كتاب الله وفَهْم معانيه:

ولما كان لتعلم كتاب الله وفهم معانيه تلك المنزلة وذلك الفضل؛ فلا عجب

(١) مدارج السالكين، ١ / ٤٥٣؛ وطلسمه: مفتاح أسراره.
(٢) متن القصيدتين النونية والميمية، ص ٣٦، فصل: في التفريق بين الخلق والأمر.
(٣) الجامع، للقرطبي ١ / ٢٦؛ ونحوه في زاد المسير، ١ / ٤.
(٤) مختصر شعب الإيمان، ١٧، ضمن الرسائل المنيرية.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، ١ / ١٤.

أن يقول ابن مسعود - رضي الله عنه -: «والله الذي لا إله غيره! ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين نزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيمن نزلت، ولو أعلم أحداً أعلم منّي بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه»(١)، «وكان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتىٰ يعرف معانيهن والعمل بهن»(٢).

ويقول علي - رضي الله عنه -: «والله! ما نزلت آية إلا وقد علمت فيما نزلت، وأين نزلت، وعلىٰ من نزلت»(٣). وهذا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - عزّ عليه أن يتجاوز آيةً واحدة لم يفهمها، وهو يقرأ سورة البقرة، فعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال عمر بن خطاب - رضي الله عنه -: «قرأت الليلة آية أسهرتني: ﴿**أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ**﴾ [البقرة: ٢٦٦] ما عَنَى بها؟(٤) ثم أجابه ابن عباس رضي الله عنهما. وكذلك جرىٰ لابن الزبير رضي الله عنه؛ حيث وقف عند آية حتىٰ أسهرته، وهي قوله: ﴿**وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ**﴾ [يوسف: ١٠٦]، ثم أجابه ابن عباس - رضي الله عنهما - عما أوقفه(٥).

ويقول مجاهد - رحمه الله -: «عرضت المصحف علىٰ ابن عباس - رضي الله عنه - ثلاث عرْضات من فاتحته إلىٰ خاتمته، أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها»(٦). ويقول الحسن - رحمه الله -: «ما أنزل الله آية إلا أُحب أن أعلم فيم

---

(١) رواه البخاري، رقم ٥٠٠٢؛ ونحوه الطبري في تفسيره، ١ / ٦٠، ٨٣.

(٢) أخرجه البخاري، ٧ / ٨١؛ وتفسير الطبري، ١ / ٦٠، ٨١؛ وتفسير ابن كثير، ١ / ١٠.

(٣) ابن سعد، ٤ / ١٥٤، عن حياة الصحابة، ٣ / ٢٥٧.

(٤) أخرجه عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن المبارك، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم مختصراً وصححه، ٣ / ٥٤٢، كما في كنز العمال، ١ / ٢٣٤. عن (حياة الصحابة)، ٣ / ٢١٩.

(٥) مختصر قيام الليل، للمروزي، ص ١٤٩، وسيأتي ذكر تمام القصة، ص ١٥٢.

(٦) تفسير الطبري، ١ / ٩٠؛ الأثر، ١٠٨؛ مقدمة في أصول التفسير، ص ١٠٢.

نزلت، وماذا عني بها؟»[١].

ويقول القرطبي ـ رحمه الله ـ عن نفسه: «فلما كان كتاب الله هو الكفيل بجميع علوم الشرع الذي استقل بالسنَّة والفرض، ونزل به أمين السماء إلىٰ أمين الأرض؛ رأيت أن أشتغل به مدىٰ عمري، وأستفرغ فيه منيتي»[٢].

٤ ـ تفاضل الناس في قراءة القرآن بتفاضلهم في فهمه وانتفاعهم به:

قال الآجري ـ رحمه الله ـ: «القليل من الدرس للقرآن مع التفكر فيه وتدبره أحب إليَّ من قراءة الكثير من القرآن بغير تدبُّر ولا تفكر فيه. وظاهر القرآن يدل علىٰ ذلك، والسنَّة، وقول أئمة المسلمين»[٣].

فحري بقارئ القرآن أن لا يتجاوز آية حتىٰ يعلم ما تدل عليه ألفاظها وإن طال وقت القراءة؛ فإنه قد حصّل مصالح عديدة منها: أنه سلك طريقاً يلتمس به علماً، ثم إنه سعىٰ إلىٰ تدبُّر القرآن فمثله حري أن يؤجر ويعان، وقد أبعد نفسه من العيب والذم الذي يقع علىٰ من هجر تدبُّر القرآن. ولا يضره قلة المقروء مع انتفاعه به، كيف وله في رسول الله ﷺ وصحبه قدوة حسنة؟!

ففي موطأ مالك ـ رحمه الله ـ أنه بلغه: «أن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ مكث علىٰ سورة البقرة ثماني سنين يتعلمها»[٤]، وعن مالك عن نافع عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: «تعلَّم عمر البقرة في اثنتي عشرة سنة فلما ختمها نحر جزوراً»[٥].

---

(١) زاد المسير، ١ / ٤.

(٢) مقدمة تفسيره، الجامع لأحكام القرآن، ١ / ٢.

(٣) أخلاق حملة القرآن، ص٨٢.

(٤) الموطأ، ١ / ٢٠٥.

(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، ١ / ٤٠؛ وتهذيب سير أعلام النبلاء، ١ / ٣٥ / أ؛ وابن سعد في الطبقات، ٤ / ١٢١.

وعن مسروق قال: «كان عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ يقرأ علينا السورة، ثم يحدثنا فيها ويفسرها عامة النهار»(١).

بالفهم يتفاضل الناس في الانتفاع بما يقرؤون، وتتفاضل أحوال المرء، فربما لا ينتفع بأعظم السور والآيات بسبب قلة فهمه وتدبُّره. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «والإنسان الواحد يختلف حاله، فقد يفعل المفضول على وجه كامل فيكون به أفضل من سائر أعماله الفاضلة، . . . فإذا قيل: إن ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] يعدل ثوابها ثواب ثلث القرآن فلا بد من اعتبار سائر الصفات، وإلا فإذا اعتبر قراءة غيرها مع التدبُّر والخشوع، بقراءتها مع الغفلة والجهل، لم يكن الأمر كذلك، بل قد يكون قول العبد: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، مع حضور القلب واتصافه بمعانيها أفضل من قراءة هذه السورة مع الجهل والغفلة. والناس متفاضلون في فهم هذه السورة وما اشتملت عليه كما أنهم متفاضلون في فهم سائر القرآن»(٢).

٥ ـ الطريق إلى فَهْم كتاب الله:

أ ـ حُسن الاستماع:

لما كان حسن الفهم ينال بحسن الاستماع قال الله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ [الزمر: ١٨]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]؛ «لأن بذلك ينال الفهم عن الله تعالى. وعن وهب بن منبه أنه قال: من أدب الاستماع سكون الجوارح، وغض البصر، والإصغاء بالسمع، وحضور العقل، والعزم على العمل؛ وذلك هو الاستماع كما يحب الله تعالى، وهو أن يكف العبد جوارحه،

(١) تفسير الطبري، ١ / ٦٠، ٨٤.
(٢) الفتاوى، ١٧ / ١٣٩.

ولا يشغلها فيشتغل قلبه عما يسمع، ويغض طرفه فلا يلهو قلبه بما يرىٰ، ويحصر عقله فلا يحدث نفسه بشيء سوىٰ ما يستمع إليه، ويعزم علىٰ أن يفهم فيعمل بما يفهم. قال سفيان بن عيينة: أول العلم الاستماع، ثم الفهم، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر»[١].

ب ـ التطلع إلى الفهم:

فمن قصد التدبُّر فمر عليه لفظ لا يعلم معناه، أو جملة لا يدرك مقصودها، أو آية لا يعقلها؛ فإنه لا يتجاوزها حتىٰ يدرك معناها، ويفهم مدلولها، إما بعلمه حين يتذكر آية تبينها، أو حديث يفسر المعنىٰ ويوضحه، أو بتأمله ونظره حيث غاب عنه المعنىٰ في أول قراءته ثم بان له مع التكرار وإمعان النظر، أو بسؤاله أهل العلم، أو باطِّلاعه في كتب التفسير. وفي معنىٰ قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ**﴾ [ق: ٣٧]، يقول الزجاج ـ رحمه الله ـ: «من شرف قلبه إلىٰ التفهم»[٢].

فلا بد من الإقبال علىٰ معاني الآيات، وبذل الجهد، وإظهار السؤال بلسان الحال والمقال، حيث قال السعدي ـ رحمه الله ـ عند قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ**﴾ [يوسف: ٧]: «آيات لكل من سأل عنها بلسان الحال أو بلسان المقال؛ فإن السائلين هم الذين ينتفعون بالآيات والعبر، وأما المعرضون فلا ينتفعون بالآيات، ولا بالقصص والبينات»[٣].

ج ـ صدق الطلب:

والإقبال علىٰ معاني القرآن وطلب الهدىٰ والخير منه؛ من أعظم السبل لنيل المطلوب منه. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «من تدبر القرآن طالباً الهدىٰ منه تبين

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، ١١ / ١٧٦.
(٢) مفتاح دار السعادة، ص ٢٠٣.
(٣) تيسير الكريم، ص ٣٩٤.

له طريق الحق»[١] . «فإذا استمع العبد إلى كتاب الله - تعالى - وسنَّة نبيه - عليه الصلاة والسلام - بنية صادقة على ما يحب الله، أفهمه كما يحب، وجعل له في قلبه نوراً»[٢] .

د - تيسير الله لطالبه:

في قوله - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧]، يقول مطر الوراق - رحمه الله - : «هل من طالب علم فيعان عليه»[٣] .

ويقول السعدي - رحمه الله تعالى - عن الآية: «ولقد يسرنا وسهلنا ألفاظه للحفظ والأداء، ومعانيه للفهم والعلم؛ لأنه أحسن الكلام لفظاً، وأصدقه معنى وأبينه تفسيراً؛ ولهذا كان علم القرآن حفظاً وتفسيراً أسهل العلوم، وأجلها على الإطلاق، وهو العلم النافع الذي إذا طلبه العبد أعين عليه؛ ولهذا يدعو الله عباده إلى الإقبال عليه والتذكر بقوله: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾»[٤] .

٦ - ذم الإعراض عن فهم كتاب الله:

يقول الله - سبحانه وتعالى -: ﴿فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨]، وقال: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [النساء: ٨٢] آمراً بتدبُّر القرآن وناهياً عن الإعراض عنه وعن تفهم معانيه المحكمة، وألفاظه البليغة[٥] . ولما عدَّد ابن القيم - رحمه الله - أنواع هجر القرآن قال: «النوع الرابع: هجر تدبره، وتفهمه، ومعرفة ما أراد المتكلم به منه»[٦] .

---

(١) العقيدة الواسطية، ص ١٠٣، ط ٦، شرح هراس .
(٢) الجامع لأحكام القرآن، ١١ / ١٧٦ .
(٣) ذكره البخاري تعليقاً، ك ٩٧، ب / ٥٣؛ الفتح ١٣ / ٥٢١؛ والطبري، ٢٧ / ٩٧؛ وأبو نعيم في الحلية، ٣ / ٧٦ .
(٤) تيسير الكريم الرحمن، ص ٨٢٥ .
(٥) انظر: تفسير ابن كثير، ١ / ٥٢٩ .
(٦) الفوائد، ص ١٥٦ .

ولما كان الجهل بمعانيه صارف عن تدبره وتذوق القلب لقراءته؛ قال الطبري ـ رحمه الله ـ: «إني لأعجب ممن قرأ القرآن ولم يعلم تأويله، كيف يلتذّ بقراءته؟!»[١].

وقد تعجب القرطبي ـ رحمه الله ـ ممن قصد تدبر القرآن والعمل به مع جهله بالمعاني، فيقول عن حامل القرآن: «وينبغي له أن يتعلم أحكام القرآن، فيفهم عن الله مراده، وما فرض عليه، فينتفع بما يقرأ، ويعمل بما يتلو، فكيف يعمل بما لا يفهم معناه؟! وما أقبح أن يُسأل عن فقه ما يتلوه ولا يدريه، فما مثل من هذا حاله إلا كمثل الحمار يحمل أسفاراً»[٢].

ولما كان حفظ القرآن بلا فقه لمعانيه مظنة لسوء الفهم، أوقف عمر العطاء لمن تسابقوا لحفظه، وذلك حين كُتب من العراق إلى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ بأن رجالاً قد جمعوا كتاب الله تعالى، فكتب إليهم: أن يفرض لهم في الديوان، فكثر من يطلب القرآن، فكُتب إليه بعد عام أنه قد جمع القرآن سبعمائة رجل. فقال عمر: إني أخشى أن يسرعوا في القرآن قبل أن يتفقهوا في الدين. فكتب ألا يعطيهم شيئاً. قال مالك: معناه: مخافة أن يتأولوه غير تأويله[٣].

وقد علَّق الطرطوشي ـ رحمه الله ـ على ذلك عائباً على من يتقن القراءة دون أن يتعلم أصول العلم المهمة، فقال: «وهذا هو حال المقرئين في هذه الأعصر[٤]؛ فإنك تجد أحدهم يروي القرآن بمئة رواية، ويثقف حروفه تثقيف القدح وهو أجهل الجاهلين بأحكامه، فلو سألته عن حقيقة الوضوء لم يخرج جواباً... وسئل مالك عن صبي ابن سبع سنين جمع القرآن؟ فقال: ما أرى هذا

(١) معجم الأدباء لياقوت، ١٨/ ٦٣، نقلاً عن مقدمة الناشر؛ تفسير الطبري، ص ١.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، ١/ ٢١.
(٣) انظر: كتاب البدع والحوادث، ص ٩٨.
(٤) توفي الطرطوشي ـ رحمه الله ـ عام ٥٣٠ هـ.

ينبغي. وإنما وجه إنكاره ما تقرر في الصحابة من كراهة التسرع في حفظ القرآن دون التفقه فيه. ومن ذلك حديث مالك عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: . . . سيأتي زمان قليل فقهاؤه، كثير قراؤه، تُحفظ فيه حروف القرآن، وتُضيّع حدوده»[١].

ويقول ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ في وصف شيء من ذلك: «كان الفقهاء في قديم الزمان هم أهل القرآن والحديث، فما زال الأمر يتناقص حتى قال المتأخرون: يكفينا أن نعرف آيات الأحكام من القرآن، وأن نعتمد على الكتب المشهورة في الحديث. . . ثم استهانوا بهذا الأمر أيضاً وصار أحدهم يحتج بآية لا يعرف معناها؛ . . . وإنما الفقه استخراجٌ من الكتاب والسنَّة، فكيف يستخرج من شيء لا يعرفه؟! . . . ولقد كانت معرفة هذا تصعب، ويحتاج الإنسان إلى السفر الطويل والتعب الكثير حتى يعرف ذلك، فصنفت الكتب، وتقررت السنن، وعرف الصحيح من السقيم، ولكن غلب على المتأخرين[٢] الكسل بالمرة عن أن يطالعوا علم الحديث»[٣].

وقال سعيد بن جبير ـ رحمه الله ـ: «من قرأ القرآن ثم لم يفسره، كالأعمى أو كالأعرابي»[٤].

رابعاً: الوقوف عند الآيات:

وهو قسمان: وقوف لفظي، ووقوف معنوي. والأول طريق للثاني، ومقرب إليه:

---

(١) كتاب البدع والحوادث، ص ٩٨.
(٢) توفي ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ سنة ٥٩٧ هـ.
(٣) تلبيس إبليس، ص ١١٥.
(٤) تفسير الطبري، ١ / ٦٠، ٨٧.

القسم الأول: الوقوف اللفظي وترتيل القراءة:

ويكون بصحة الأداء، وتحسين التلاوة والتغني بها. وفيه مسائل:

١ ـ صفة الترتيل والحث عليه:

عن قتادة ـ رحمه الله ـ أنه قال: «سئل أنس ـ رضي الله عنه ـ عن قراءة النبي ﷺ فقال: كان يمد مداً. ثم قرأ: (بسم الله الرحمن الرحيم): يمد بسم الله، ويمد بالرحمن، ويمد بالرحيم»[(١)].

وعن يعلىٰ بن مَملكٍ أنه سأل أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ عن قراءة رسول الله ﷺ وصلاته، ثم نعتت قراءته فإذا هي تنعت قراءةً مفسرةً حرفاً حرفاً[(٢)]. وذلك ـ والله أعلم ـ هو المقصود من قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ [الإسراء: ١٠٦]. قال ابن الجوزي: «علىٰ تؤدة وترسل ليتدبروا معناه»[(٣)]. وفي قوله ـ سبحانه ـ: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ [المزمل: ٤] يقول البغوي ـ رحمه الله ـ: «ترتيل القراءة: التأني والتمهل، وتبيين الحروف والحركات، تشبيهاً بالثغر المرتل، وهو المشبه بنَوْر الأقحوان»[(٤)]. وقال القرطبي: «أي لا تعجل بقراءة القرآن، بل اقرأه في مهل وبيان مع تدبر المعاني»[(٥)].

---

(١) أخرجه البخاري، ٩ / ٧٩؛ ونحوه عند أبي داود، رقم ١٤٥٦؛ والنسائي، ٢ / ١٧٩.

(٢) رواه النسائي، ٢ / ١٨١؛ وروىٰ نحوه الترمذي، رقم ٢٩٢٤، وقال: حديث حسن صحيح؛ وأبو داود، رقم ١٤٦٦؛ وفي رواية: (يُقَطِّع قراءته آية آية)، رواه أبو داود، رقم ٤٠٠١؛ وصححه ابن خزيمة؛ والدارقطني، ١٨١؛ وأحمد، ٦ / ٣٠٢، والحاكم؛ وأقره الذهبي، قال الجزري ـ في النشر (١ / ٢٢٦) ـ: وهو حديث حسن؛ وسنده صحيح. انظر: جامع الأصول، ٢ / ٤٦٣؛ وضعفه الألباني في (ضعيف أبي داود) ٢٦٠، وقال في صفة الصلاة: (قراءة مفسرة حرفاً حرفاً)، ص ١٢٤، رواه ابن المبارك في الزهد، ١ / ١٦٢؛ وأبو داود بسند صحيح.

(٣) زاد المسير، ٥ / ٧٠؛ وانظر: أخلاق حملة القرآن، ص٨٢.

(٤) شرح السنة، ٢ / ٤٦٥.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، ١٩ / ٣٧.

وعن البراء ـ رضي الله عنه ـ قال: «سمعت رسول الله ﷺ قرأ في العشاء بـ (التين والزيتون)، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً منه»[١].

وعن ابن أبي ذئب ـ رحمه الله ـ عن صالح قال: «كنت جاراً لابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، وكان يتهجد من الليل، فيقرأ الآية ثم يسكت قدر ما حدثتك، وذاك طويل، ثم يقرأ. قلت: لأي شيء فعل ذلك؟ قال: من أجل التأويل يفكر فيه»[٢].

٢ ـ التغنّي بالقرآن:

قال ﷺ: «ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن»[٣].

في تفسير ألفاظ هذا الحديث الشريف قال النووي ـ رحمه الله ـ: «قال جمهور العلماء: معنى «لم يتغن»: لم يحسن صوته بالقرآن»[٤]، و «أجمع العلماء ـ رضي الله عنهم ـ من السلف والخلف والتابعين ومن بعدهم على استحباب تحسين الصوت بالقرآن»[٥]، «ويستحب ترتيل القراءة وتدبرها؛ وهذا مجمع عليه»[٦]، «ويستحب طلب القراءة من حسن الصوت والإصغاء إليه؛ للحديث الصحيح»[٧].

---

(١) رواه البخاري، ١ / ١٩٤؛ ومسلم ٤ / ١٨١؛ وأحمد، ٤ / ٢٩٨، ٣٠٢؛ وابن ماجه، رقم ٨٣٤، ٨٣٥.

(٢) مختصر قيام الليل، للمروزي، ١٤٩.

(٣) رواه البخاري، رقم ٧٥٢٧، وزاد: (يجهر به)؛ ورواه مسلم، رقم ٧٩٢؛ وأبو داود، رقم ١٤٧٠؛ وأحمد، رقم ١٤٧٦؛ وابن ماجه، رقم ١٣٣٧.

(٤) التبيان، ص ٧٨؛ ورياض الصالحين: باب تحسين الصوت بالقرآن، وطلب القراءة من حسن الصوت والاستماع له، ص ٣٢٩.

(٥) التبيان، ص٧٧. وفي شرح مسلم، ٦ / ٨٠.

(٦) المجموع، ٣ / ٣٩٦.

(٧) الإتقان في علوم القرآن، ١ / ١٤٢.

ويقول الشيرازي ـ رحمه الله ـ : «يُستحب تحسين الصوت بالقرآن»[١].

ويقول القرطبي ـ رحمه الله ـ في شرح الحديث: (أي ليس منا من لم يحسّن صوته بالقرآن، وأجازت طائفة رفع الصوت بالقرآن والتطريب به؛ وذلك لأنه إذا حسَّن الصوت به كان أوقع في النفوس وأسمع في القلوب[٢] . . . وقال رجل لابن أبي مليكة: يا أبا محمد، أرأيت الرجل إذا لم يكن حسن الصوت؟ قال: يحسِّنه ما استطاع[٣] . . . وقيل: إن معنىٰ «يتغنىٰ به»: يتحزن به[٤]؛ أي يظهر علىٰ قارئه الحزن عند قراءته وتلاوته[٥]؛ واحتجوا بما رواه مطرف بن عبد الله بن الشخير عن أبيه قال: «رأيت رسول الله ﷺ يصلي ولصدره أزيزٌ كأزيز المرجل

(١) المهذب، ٢ / ٤١٩.

(٢) وذكر أن ممن ذهب إلىٰ هذا: أبو حنيفة وأصحابه، والشافعي، وابن المبارك، والنضر بن شميل، وهو اختيار أبي جعفر، وأبي الحسن ابن بطال، والقاضي أبي بكر ابن العربي وغيرهم.

(٣) روىٰ أبو داود عن عبد الجبار بن الورد قال: (سمعت ابن أبي مليكة يقول: قال عبيد الله بن أبي يزيد: مر بنا أبو لبابة فاتبعناه فسمعته يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن». قال قلت: لابن أبي مليكة يا أبا محمد، أرأيت الرجل . . .)، قال عنه ابن حجر ـ رحمه الله ـ: بإسناد صحيح. الفتح، ٩ / ٧٢؛ و قال الألباني ـ رحمه الله ـ: حسن صحيح. سنن أبي داود، رقم ١٤٧١؛ طبعة بيت الأفكار.

(٤) جاء عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعاً: (إن أحسن الناس من إذا قرأ القرآن يتحزن به)، رواه الطبراني في الكبير، ٣ / ١٠١ / ١؛ وعنه أبو نعيم في الحلية، ٤ / ١٩؛ وفي رواية عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ ترفعه: (إذا قرأ القرآن رأيت أنه يخشىٰ الله)، أخرجه الأصبهاني، ٢/ ٥٨؛ والدارمي، ٢ / ٤٧١؛ بإيجاز من تخريج الألباني في الصحيحة، وقد صحح الحديث ورجح اللفظ الأخير. انظر: الصحيحة، رقم ١٥٨٣، ٤ / ١١١؛ وصحيح الجامع، ١ / ٦٧٦ والزهد، لابن المبارك، ص٣٧. وانظر: ابن ماجه، رقم ١٣٣٩. وانظر: تخريج الحديث في حاشية أخلاق حملة القرآن، ص ٧٩.

(٥) وذكر القرطبي ـ رحمه الله ـ أنه ذهب إلىٰ هذا جماعة منهم ابن حبان البستي؛ وذكر ابن مفلح أن منهم الليث بن سعد، الآداب الشرعية، ٢ / ٢٩٩.

من البكاء»[١]. والأزيز: صوت الرعد وغليان القدر)[٢].

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «قال ابن البطال: وقالت طائفة: التغني بالقرآن: هو تحسين الصوت به والترجيع بقراءته. قال: والتغني بما شاء من الأصوات واللحون هو قول ابن المبارك، والنضر بن شميل. . . عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه كان يقول لأبي موسى ـ رضي الله عنه ـ: ذكّرنا ربنا. فيقرأ أبو موسى ويتلاحن. وقال: من استطاع أن يتغنى بالقرآن غناء أبي موسى فليفعل. وكان عقبة بن عامر من أحسن الناس صوتاً بالقرآن، فقال له عمر ـ رضي الله عنه ـ: اعرض عليَّ سورة كذا. فعرض عليه، فبكى عمر ـ رضي الله عنه ـ وقال: ما كنت أظن أنها نزلت. قال: وأجازه ابن عباس، وابن مسعود، وروي عن عطاء بن أبي رباح. وقال: وكان عبد الرحمن بن الأسود بن يزيد يتتبع الصوت الحسن في المساجد في شهر رمضان. وذكر الطحاوي عن أبي حنيفة وأصحابه: أنهم كانوا يستمعون القرآن بالألحان. وقال محمد بن عبد الحكم: رأيت أبي والشافعي ويوسف بن عمر، يستمعون القرآن بالألحان. وهذا اختيار ابن جرير الطبري.

وقالوا: لأن تزيينه، وتحسين الصوت به، والتطريب بقراءته أوقع في

---

(١) أخرجه أبو داود، رقم ٩٠٤؛ والترمذي في الشمائل، رقم ٣١٥؛ وأحمد، ٤ / ٢٥، ٢٦؛ والنسائي، ٣ / ١٣؛ وصححه ابن خزيمة؛ وابن حبان ٥٢٢؛ والحاكم؛ وصححه الألباني في (مختصر الشمائل) ٢٧٦؛ وفي صحيح أبي داود، رقم ٨٣٩؛ وانظر: تخريج الأرناؤوط؛ في تحقيق (شرح السنة) ٣ / ٢٤٥؛ وقال: وإسناده قوي.

(٢) بإيجاز من الجامع لأحكام القرآن، ١ / ١١، ثم قال ـ رحمه الله ـ: (وهذا الخلاف إنما هو ما لم يفهم منه معنى القرآن بترديد الأصوات وكثرة الترجيعات. فإن زاد الأمر على ذلك حتى لا يفهم فذلك حرام باتفاق، كما يفعل القراء بالديار المصرية الذين يقرؤون أمام الملوك والجنائز، ويأخذون الأجور والجوائز، ضل سعيهم وخاب عملهم، فيستحلون بذلك تغيير كتاب الله . . .)، ١ / ١٦؛ ولمزيد من التفصيل ينظر في هذا كتاب (الآداب الشرعية)، لابن مفلح، ص ٢٩٧؛ و (التبيان)، للنووي، ص ٧٩؛ و (زاد المعاد في هدي خير العباد)، ١ / ٤٥٢؛ و (كتاب البدع والحوادث)، للطرطوشي، ص ٩٦. والجامع لأحكام القرآن، ١٥ / ٢٤٩.

النفوس، وأدعىٰ إلىٰ الاستماع والإصغاء إليه، ففيه تنفيذ للفظه إلىٰ الأسماع، ومعانيه إلىٰ القلوب؛ وذلك عون علىٰ المقصود، وهو بمنزلة الحلاوة التي تجعل في الدواء لتنفذه إلىٰ موضع الداء، . . . لا تُخْرِج الكلام عن وضعه، ولا تحول بين السامع وبين فهمه، ولو كانت متضمنة لزيادة الحروف كما ظن المانع منها؛ لأخرجت الكلمة عن مواضعها، وحالت بين السامع وبين فهمها، ولم يدر ما معناها، والواقع بخلاف ذلك». «وفصل النزاع، أن يقال: التطريب والتغني علىٰ وجهين:

أحدهما: ما اقتضته الطبيعة، وسمحت به من غير تكلف، ولا تمرين ولا تعليم، بل إذا خلي وطبعه، واسترسلت طبيعته؛ جاءت بذلك التطريب والتلحين، فذلك جائز، وإن أعان طبيعته بفضل تزيين وتحسين، كما قال أبو موسىٰ للنبي ﷺ: «لو علمت أنك تسمع لحبّرته لك تحبيراً»[(١)]، . . . فهذا هو الذي كان السلف يفعلونه ويستمعونه، وهو التغني الممدوح المحمود، وهو الذي يتأثر به التالي والسامع، . . . .

الوجه الثاني: ما كان من ذلك صناعة من الصنائع . . . كما يتعلم أصوات الغناء بأنواع الألحان البسيطة والمركبة علىٰ إيقاعات مخصوصة وأوزان مخترعة . . . فهذه هي التي كرهها السلف وعابوها وذموها ومنعوا القراءة بها . .

وكل من له علم بأحوال السلف، يعلم قطعاً أنهم برآء من القراءة بألحان الموسيقىٰ المتكلفة التي هي إيقاعات وحركات موزونة معدودة محدودة، وأنهم أتقىٰ لله من أن يقرؤوه بها ويسوّغوها، ويعلم قطعاً أنهم كانوا يقرؤون بالتحزين والتطريب، ويحسّنون أصواتهم بالقرآن، ويقرؤونه بشجىٰ تارة، وبطرب تارة،

---

(١) الحديث ذكره الهيثمي في المجمع، ٧/ ١٧٠، وقال: رواه أبو يعلىٰ، وفيه خالد بن نافع الأشعري وهو ضعيف؛ وقال الحافظ: (ولابن سعد من حديث أنس، بإسناد علىٰ شرط مسلم، أن أبا موسىٰ قام ليلة يصلي، فسمع أزواج النبي ﷺ صوته، وكان حلو الصوت فقمن يستمعن؛ فلما أصبح قيل له، فقال: لو علمت لحبرته لهن تحبيراً)، الفتح، ٩/ ٨١. نقلاً عن تخريج زاد المعاد، ١/ ٤٨٤.

وبشوق تارة، وهذا مركوز في الطباع تقاضيه، ولم ينه عنه الشرع، مع شدة تقاضي الطباع له، بل أرشد إليه وندب، وأخبر عن سماع الله لمن قرأ به»[١].

قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ: «ولا شك أن النفوس تميل إلىٰ سماع القراءة بالترنيم أكثر من ميلها لمن لا يرنم؛ لأن للتطريب تأثيراً في رقة القلب وإجراء الدمع، وكان بين السلف اختلاف في جواز [قراءة] القرآن بالألحان. أما تحسين الصوت وتقديم حسن الصوت علىٰ غيره فلا نزاع فيه»[٢].

٣ ـ الترسل بالقراءة والنهي عن العجلة:

ومن دلائل التأني في القراءة أن جبريل ـ عليه السلام ـ كان يعرض القرآن علىٰ رسول الله ﷺ في كل عام مرة، وفي العام الذي قبض فيه عرض عليه القرآن مرتين[٣]. وفي رواية: «كان يدارسه القرآن في كل ليلة من ليالي رمضان»[٤]، قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ: «ويحتمل أنه ﷺ كان يقسم ما نزل من القرآن في كل سنة علىٰ ليالي رمضان أجزاء، فيقرأ كل ليلة جزءاً في جزء من الليلة»[٥].

وعن حفصة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ قالت: «كان ﷺ يقرأ بالسورة فيرتلها، حتىٰ تكون أطول من أطول منها»[٦].

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد، ١ / ٤٨٦ ـ ٤٩٣؛ وانظر في الفتح، ٩ / ٧٢.

(٢) الفتح، ٩ / ٧٢. أضيفت كلمة [قراءة] للتوضيح.

(٣) وثبت ذلك في ما رواه البخاري عن فاطمة ـ رضي الله عنها ـ قالت: (أسر إليَّ النبي ﷺ: أن جبريل كان يعارضني بالقرآن كل سنة، وإنه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلا حضر أجلي)، رواه البخاري، رقم ٣٦٢٣، ٦٢٨٥، وفي رواية ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: (كان . . . يعرض عليه رسول الله ﷺ القرآن)، البخاري، رقم ٤٩٩٧؛ وفي رواية أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: (كان يعرض علىٰ النبي ﷺ القرآن)، البخاري، رقم ٤٩٩٨. قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ: (والمعارضة: مفاعلة من الجانبين، كأن كلاً منهما كان يقرأ والآخر يسمع)، الفتح، ٩/ ٤٣.

(٤) رواه البخاري، ٤ / ٩٩؛ ومسلم، رقم ٢٣٠٧.

(٥) الفتح، ٩ / ٤٥.

(٦) رواه مسلم، رقم ٧٣٣؛ والترمذي، رقم ٣٧٣؛ والنسائي، رقم ١٦٥٨؛ والدارمي، رقم ١٣٥٠؛ ومالك، رقم ٢٨٥.

وقد أنكر ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ على نهيك بن سنان سرعته في القراءة حين قال: قرأت المفصل البارحة. فقال عبد الله ـ رضي الله عنه ـ: «هذّاً كهذّ الشعر!! إنا قد سمعنا القراءة، وإني لأحفظ القرناء التي يقرأ بهنّ النبي ﷺ»(١).

وقد قرأ علقمة ـ وكان حسن الصوت بالقرآن ـ على ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ فكأنه عجل، فقال عبد الله: «فداك أبي وأمي، رتل فإنه زين القرآن».

وسُئِلَ مجاهد ـ رحمه الله ـ عن رجلٍ قرأ البقرة وآل عمران، ورجل قرأ البقرة؛ قراءتهما واحدة، وركوعهما، وسجودهما، وجلوسهما؛ أيهما أفضل؟ فقال: «الذي قرأ البقرة. ثم قرأ: ﴿**وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً**﴾ [**الإسراء**: ١٠٦]»(٢)، وفي رواية قال: «إن أحب الناس إلى الله أعقلهم عنه»(٣).

٤ ـ مدة ختم القرآن:

عن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ قال: كنت أصوم الدهر، وأقرأ القرآن كل ليلة فقال لي رسول الله ﷺ: «ألم أُخبر أنك تصوم الدهر، وتقرأ القرآن كل ليلة؟! فقلت: بلى يا نبي الله، ولم أرد بذلك إلا الخير» ـ ثم أخبره عن الصيام ـ ثم قال رسول الله ﷺ: «واقرأ القرآن في كل شهر. قال قلت: يا نبي الله، إني أطيق أفضل من ذلك. قال: فاقرأه في كل عشرين. قال قلت: يا نبي الله، إني أطيق أفضل من ذلك. قال: فاقرأ القرآن في كل عشر. قال قلت:

(١) رواه البخاري، رقم ٧٧٥، ٥٠٤٣؛ ومسلم، رقم ٨٢٢؛ وأبو داود، رقم ١٣٩٦؛ وأحمد ١/ ٣٨٠، والدقل: رديء التمر ويابسه. وهذّاً: أي سرداً وإفراطاً في السرعة. انظر: الفتح، ٩/ ٨٩، وتعليق فؤاد زمرلي على كتاب: (أخلاق حملة القرآن)، ص ١٩.

(٢) أخرجه الآجري في أخلاق حملة القرآن، آخر كتابه، ص ٨٣؛ وانظر: التبيان، ص ٦٥؛ والفتح، ٩/ ٨٩.

(٣) مختصر قيام الليل، للمروزي، ١٣٢؛ والجامع لأحكام القرآن، ١٩/ ٣٧.

يا نبي الله، إني أطيق أفضل من ذلك. قال: فاقرأه في كل سبع[(١)]، ولا تزد على ذلك»[(٢)].

وفي رواية له - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ أول ما قال له: «اقرأه في أربعين»[(٣)].

ولذلك قال إسحاق بن إبراهيم - رحمه الله -: «ولا نحب للرجل أن يأتي عليه أكثر من أربعين يوماً ولم يقرأ القرآن؛ لهذا الحديث»[(٤)].

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «كان ﷺ لا يقرأ القرآن في أقل من ثلاث»[(٥)].

---

(١) عن طريقة ختم القرآن في سبعة أيام، قال أوس بن حذيفة - رضي الله عنه -: «سألت أصحاب النبي ﷺ كيف تحزبون القرآن؟ قالوا: ثلاث، وخمس، وسبع، وتسع، وإحدى عشر، وثلاث عشر، وحزب المفصل وحده». رواه أبو داود، رقم ١٣٩٣؛ وابن ماجه، رقم ١٣٤٥. وفي سنده عثمان بن عبد الله بن أوس، قال الحافظ في التقريب: مقبول - يعني إذا توبع - وإلا فَلَيِّن. وقال الذهبي في الميزان: محله الصدق. نقلاً عن تخريج الوادعي على تفسير ابن كثير، ١ / ١٨؛ وانظر: تخريج الأرناؤوط في جامع الأصول، ٢/ ٤٧٥. ومعنى الخبر أنهم يقرؤن في اليوم الأول السور الثلاث الأولى، وفي اليوم الثاني الخمس التي تليها وهكذا.

(٢) رواه البخاري، رقم ١٩٧٤، ٥٠٥٢؛ ورواه مسلم، رقم ١١٥٩، واللفظ له؛ وأحمد، ٢ / ١٦٥، ١٨٩؛ وأبو داود، رقم ١٣٨٨؛ والنسائي، رقم٢٣٩٠؛ وابن ماجه، رقم ١٣٤٦؛ والترمذي، رقم ٣١١٦؛ وفيه (قال: اختمه في خمس. قلت: إني أطيق أفضل من ذلك، قال: فما رخص لي)، قال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب؛ وهو عند أحمد، ٢ / ١٨٨، ١٩٥.

(٣) رواه الترمذي، رقم ٣١١٧، وقال: حديث حسن غريب؛ وأبو داود، رقم ١٣٩٥؛ وأحمد، ٢ / ١٥٨؛ وقال الألباني: إسناده حسن؛ وأكثر طرق الحديث لم يرد فيها لفظ الأربعين. انظر تخريجه في السلسلة الصحيحة، ٤ / ١٧، رقم: ١٥١٢، ١٥١٣.

(٤) ذكره الترمذي في سننه عقب حديث رقم ٣١١٦.

(٥) رواه ابن سعد في الطبقات، ١ / ٣٧٦؛ و ذكره الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ٢٤٦٦؛ وقال عن إسناد ابن سعد: (ضعيف. . . ولكن يشهد للحديث نهيه ﷺ عبد الله بن عمرو؛ وحديث من قرأ القرآن في أقل من ثلاث لم يفقه). واحتج به في صفة الصلاة، ١٢٠؛ وهو في صحيح الجامع برقم ٤٨٦٦.

وعنها - رضي الله عنها - قالت: «ولا أعلم نبي الله ﷺ قرأ القرآن كله في ليلة»(١).

ولما ذكر النووي - رحمه الله - عادات السلف في ختم القرآن، وذكر من كان يختمه في سبع قال: «وهذا فعل الأكثرين من السلف»(٢).

وقال السيوطي - رحمه الله - عن ذلك: «وهذا أوسط الأمور وأحسنها، وهو فعل الأكثر من الصحابة وغيرهم»(٣). وعن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - قال: قال ﷺ: «لم يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث»(٤).

قال الترمذي: قال بعض أهل العلم: «لا يقرأ القرآن في أقل من ثلاث للحديث، ورخص فيه بعض أهل العلم(٥). والترتيل في القراءة أحب إلى أهل العلم»(٦).

يقول النووي - رحمه الله - عن ختم القرآن: «والاختيار أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص؛ فمن كان يظهر له بدقيق الفكر لطائف ومعارف، فليقتصر على ما يحصل له كمال فهم ما يقرؤه، وكذا من كان مشغولاً بنشر العلم أو غيره من مهمات الدين، ومصالح المسلمين العامة فليقتصر على قدر لا يحصل بسببه إخلال بما هو مرصد له، وإن لم يكن مع هؤلاء المذكورين فليستكثر ما أمكنه، من

---

(١) رواه مسلم، رقم ٧٤٦؛ وأبو داود، رقم ١٣٤٢.

(٢) الأذكار ص٨٥؛ ونحوه في التبيان، ص٤٥.

(٣) الإتقان، ١ / ١٣٧.

(٤) أخرجه أحمد، ٢ / ١٩٥؛ والترمذي، رقم٣١٢٠، وقال: حديث حسن صحيح؛ وابن ماجه، رقم ١٣٤٧؛ وأبو داود، رقم١٣٩٠، ١٣٩٤؛ والطيالسي، رقم ٢٢٥٦. وصححه النووي في التبيان، ص ٤٦، والألباني في صحيح أبي داود، رقم١٢٥٧؛ وفي الصحيحة، رقم ١٥١٣ وفي صحيح الجامع، رقم ٤٨٦٦.

(٥) قال الذهبي - رحمه الله - معلقاً - على فعل وكيع بن الجراح - رحمه الله - وقد روي عنه أنه يختم القرآن كل ليلة: (الدين يسر: ومتابعة السنة أولى؛ فرضي الله عن وكيع، وأين مثل وكيع؟!)، سير أعلام النبلاء، ٧ / ٣٩ / ٢.

(٦) ذكره الترمذي في سننه عقب حديث، رقم ٣١١٦.

غير خروج إلىٰ حد الملل والهذرمة. وقد كره جماعة من المتقدمين الختم في يوم وليلة، ويدل عليه الحديث الصحيح عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما»[١].

ويقول ابن قدامة ـ رحمه الله ـ: «ومنهم ـ يعني السلف ـ من كان يختم في كل شهر اشتغالاً بالتدبر أو بنشر العلم، . . . وأولىٰ الأمر: ما لا يمنع الإنسان من أشغاله المهمة، ولا يفوته معه الترتيل والفهم. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لأن أقرأ البقرة وآل عمران وأرتلهما وأتدبرهما أحب إليَّ من أن أقرأ القرآن هذرمة»[٢].

وعن أبي حمزة قال: قلت لابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: «إني سريع القراءة، وإني أقرأ القرآن في ثلاث. فقال عبد الله: لأن أقرأ البقرة في ليلة فأدَّبرها، وأرتلها أحبُّ إليَّ من أقرأ كما تقول»[٣].

وفي رواية قال: «إن كنت فاعلاً فاقرأ قراءة تسمعها أذنك، ويعيها قلبك»[٤]. وفي رواية قال: «ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة والقلب ساه»[٥].

القسم الثاني: الوقوف عند المعاني.

وهو أن يقف القارئ عند المعنىٰ فلا يتجاوزه إلىٰ غيره، متأملاً له، ومعتبراً به، وهو المقصود من حسن الاستماع والتلاوة، ومن ترتيل القرآن والتغني به. وهنا عدد من المسائل:

١ ـ صفة الوقوف عند المعاني والحث عليه:

من أبلغ الشواهد لذلك ما رواه حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ حيث قال:

---

(١) التبيان في آداب حملة القرآن، ص ٤٦؛ والأذكار، ص ٨٦.
(٢) مختصر منهاج القاصدين، ص٦٧ ـ ٦٨.
(٣) فضائل القرآن، لابن كثير، ص ٤٦؛ أخلاق حملة القرآن، ص ٨٢؛ الفتح، ٩ / ٨٩؛ مختصر قيام الليل، ١٤٩.
(٤) ذكره ابن حجر في الفتح، ٩ / ٨٩.
(٥) مختصر قيام الليل، للمروزي، ١٤٩.

«صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة فافتتح البقرة فقرأها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها . . . يقرأ مترسلاً، إذا مر بآية فيها تسبيح سبَّح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوَّذ ثم ركع»(١).

ونحوه عن عوف بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: «قمت مع النبي ﷺ ليلة فقام فقرأ البقرة، لا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف فتعوذ، ثم ركع بقدر قيامه، يقول في ركوعه: سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة، ثم سجد بقدر قيامه، ثم قال في سجوده مثل ذلك، ثم قام فقرأ آل عمران، ثم قرأ سورة سورة»(٢).

وقد ذمت عائشة ـ رضي الله عنها ـ من قرأه في ليلة؛ أخرج أحمد عن مسلم ابن مخراق قال: «قلت لعائشة: يا أم المؤمنين، إن أناساً يقرأ أحدهم القرآن في ليلة مرتين أو ثلاثاً. فقالت: قرؤوا ولم يقرؤوا؛ كان رسول الله ﷺ يقوم الليلة التمام فيقرأ بسورة البقرة وسورة آل عمران وسورة النساء، ثم لا يمر بآية فيها استبشار إلا دعا الله ـ عز وجل ـ ورغب، ولا يمر بآية فيها تخويف إلا دعا الله ـ عز وجل ـ واستعاذ»(٣).

ومن أعظم ما يوقظ حس المسلم إلىٰ أهمية الوقوف علىٰ الآيات حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ الذي يقول فيه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله ـ عز وجل ـ: قسمتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل. فإذا قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]؛ قال الله: حمدني عبدي. وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٣]؛ قال الله: أثنىٰ عليَّ عبدي. وإذا قال: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]؛ قال الله: مجدني عبدي ـ وقال مرة: فوض إليّ عبدي أمره ـ. وإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]؛ قال الله:

---

(١) رواه مسلم، رقم ١٧٦٤؛ والنسائي، رقم ١٦٣٣؛ وأبو داود، رقم ٨٧١؛ والترمذي، رقم ٢٦٢؛ وابن ماجه، رقم ٨٩٧.

(٢) رواه أبو داود، رقم ٨٧٣؛ وصححه النووي في المجموع، ٤ / ٦٧؛ والألباني في صحيح أبي داود، ٨١٧.

(٣) أخرجه أحمد، ٦ / ٩٢، ١١٩.

هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل. فإذا قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]؛ قال الله: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل»[١].

فانظر كيف تكون مناجاة الله للعبد عند كل جملة بما يناسبها، وما أكرم ذلك العبد الذي استحضر عظمتها فنال شرف القرب، ولذة المناجاة، وحسن العبادة، والخشوع في التلاوة.

٢ ـ نماذج من وقوف السلف على المعاني:

قال ابن أبي مليكة ـ رحمه الله ـ: «سافرت مع ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ من مكة إلى المدينة فكان يقوم نصف الليل فيقرأ القرآن حرفاً حرفاً ثم يبكي حتى تسمع له نشيجاً»[٢].

وقالت أم ولد الحسن البصري ـ رحمه الله ـ: «رأيته فتح المصحف فرأيت عيناه تسيلان وشفتاه لا تتحركان».

ويقول إسحاق بن إبراهيم الطبري عن الفضيل بن عياض ـ رحمه الله ـ: «كانت قراءته حزينة شهية بطيئة مترسلة كأنه يخاطب إنساناً، وكان إذا مر بآية فيها ذكر الجنة يردد فيها ويسأل»[٣].

وقال أحمد بن أبي الحواري ـ رحمه الله ـ: «إني لأقرأ القرآن وأنظر في آية فيُحيَّر عقلي بها، وأعجب من حفاظ القرآن؛ كيف يهنيهم النوم ويسعهم أن يشتغلوا بشيء من الدنيا وهم يتلون كلام الله! أما إنهم لو فهموا ما يتلون، وعرفوا حقه فتلذذوا به، واستحلوا المناجاة؛ لذهب عنهم النوم فرحاً بما

---

(١) رواه مسلم، رقم ٣٩٥؛ وأبو داود، رقم ٨٢١؛ والترمذي، رقم ٢٩٥٣؛ والنسائي، رقم ٩٠٨؛ ومالك في الموطأ ١ / ٨٤.

(٢) مختصر قيام الليل، ١٣١.

(٣) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء، ٢ / ٦٦٢.

قـد رزقوا»(١).

ويكون الوقوف عند الآية أيضاً بالوقوف عند حدودها والعمل بحكمها حينما يُذكّر بها، كما حصل لعمر بن الخطاب - رضي الله عنه - حين قدم عُيَيْنَة بن حصن على ابن أخيه الحُرِّ بن قَيس، فاستأذن الحرُّ لعيينة للدخول على عمر رضي الله عنه، فأذن له عمر فلما دخل عليه قال عيينة: «هِيْ يا ابن خطاب، فو الله ما تعطينا الجَزْل، ولا تحكم بيننا بالعدل. فغضب عمر حتى همّ أن يوقع به. فقال الحُرُّ: يا أمير المؤمنين! إن الله - تعالى - يقول لنبيه ﷺ: ﴿**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**﴾ [**الأعراف**: ١٩٩] ، وإن هذا من الجاهلين. قال الراوي: والله! ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافاً عند كتاب الله»(٢).

٣ - تكرار الآية:

وتكرار الآية من صور الوقوف عند المعاني، وقد قال أبو ذر - رضي الله عنه -: «قام النبي ﷺ بآية حتى أصبح، يرددها، والآية: ﴿**إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [**المائدة**: ١١٨]»(٣).

وجاءت نقولٌ كثيرة عن السلف في ترديدهم لبعض الآيات، فمنها: عن عباد بن حمزة - رحمه الله - قال: «دخلت على أسماء - رضي الله عنها - وهي تقرأ: ﴿**فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ**﴾ [**الطور**: ٢٧]، فوقفت عندها،

---

(١) انظر: لطائف المعارف، ص ٢٠٣.

(٢) رواه البخاري، رقم ٤٦٤٢؛ عن ابن عباس رضي الله عنهما. قوله: «الجَزْل» أي العطاء الكثير.

(٣) رواه أحمد، رقم ٢١٠٤؛ وابن ماجه، رقم ١٣٨٩؛ وقال في مصباح الزجاجة: إسناده صحيح. وصحح إسناده العراقي في تخريج الإحياء، ١ / ٢٨٢٠؛ ورواه النسائي، ١ / ١٧٧؛ والحاكم، ١ / ٢٤١ وصححه؛ ووافقه الذهبي؛ وحسنه الألباني في صحيح النسائي، رقم ١٠١٠ (ط: بيت الأفكار)؛ واحتج به في صفة الصلاة، ص ١٢١؛ وحسنه الأرناؤوط في تخريج مختصر منهاج القاصدين، ص ٥٤.

فجعلتْ تعيدها وتدعو، فطال عليّ ذلك فذهبتُ إلىٰ السوق، فقضيت حاجتي ثم رجعت وهي تعيدها وتدعو»(١).

وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - أنه ردد قوله - تعالىٰ -: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

وعن سعيد بن جبير - رحمه الله - أنه ردد قوله - تعالىٰ -: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وردد قوله - تعالىٰ -: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝ إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ [غافر: ٧٠، ٧١]، وروي عنه أنه أحرم بنافلة فاستفتح: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١]، فلم يزل فيها حتىٰ نادىٰ منادي السحر(٢).

وعن الضحاك - رحمه الله - أنه ردد قوله - تعالىٰ -: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦](٣).

وعن عامر بن عبد قيس - رحمه الله - أنه قرأ ليلة سورة المؤمن، فلما انتهىٰ إلىٰ قوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ﴾ [غافر: ١٨]، فلم يزل يرددها حتىٰ أصبح. ونقل عنه أن قرأ قوله - تعالىٰ -: ﴿فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ [الأنعام: ٢٧]، فجعل يبكي ويرددها حتىٰ أسحر(٤).

وقال محمد بن كعب - رحمه الله -: لأن أقرأ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ و﴿الْقَارِعَةُ﴾ أرددهما وأتفكر فيهما أحب من أن أبيت أهذّ القرآن(٥).

---

(١) مختصر قيام الليل، ص ١٤٩.

(٢) تخريج أحاديث إحياء علوم الدين، ٢ / ٧٠٦، ٨٤٨، وعزاه إلىٰ أبي عبيد في (الفضائل).

(٣) ذكر هذه الأخبار النووي في التبيان، ص ٦٢؛ وانظر في ذلك أيضاً: باب ترديد المصلي الآية مرة بعد مرة يتدبر ما فيها، من كتاب مختصر قيام الليل، للمروزي، ص ١٤٨.

(٤) تخريج أحاديث أحياء علوم الدين، ٢ / ٧٠٧، ٨٤٨

(٥) مختصر قيام الليل، للمروزي، ص١٥٠؛ والزهد، لابن المبارك، ص ٩٧.

وردد الحسن البصري ـ رحمه الله ـ ليلة: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾ حتىٰ أصبح، فقيل له في ذلك، فقال: إن فيها معتبراً، ما نرفع طرفاً ولا نرده إلا وقع علىٰ نعمة، وما لا نعلمه من نعم الله أكثر(١).

وقام تميم الداري ـ رضي الله عنه ـ بآية حتىٰ أصبح، وهي قوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الجاثية: ٢١](٢)، وكذلك قام بها الربيع بن خُثيم(٣).

قال النووي ـ رحمه الله ـ: «وقد بات جماعة من السلف يتلو الواحد منهم الآية الواحدة ليلة كاملة أو معظمها يتدبرها عند القراءة»(٤).

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «هذه كانت عادة السلف، يردد أحدهم الآية إلىٰ الصبح»(٥).

٤ ـ الطريق إلى الوقوف على المعاني:

«أصل الوقوف علىٰ معاني القرآن التدبر والتفكر، فإذا كان العبد مصغياً إلىٰ كلام ربه، ملقيَ السمع وهو شهيد القلب لمعاني صفات مخاطبه، ناظراً إلىٰ قدرته، تاركاً للمعهود من علمه ومعقوله، متبرئاً من حوله وقوته، معظماً للمتكلم، مفتقراً إلىٰ الفهم، بحال مستقيم، وقلب سليم، وقوة علم، وتمكن سمعٍ لفهم الخطاب، وشهادة غيب الجواب، بدعاء متضرع، وابتئاسٍ وتمسكنٍ، وانتظارٍ للفتح عليه من عند الفتاح العليم، وليستعن علىٰ ذلك بأن تكون تلاوته

---

(١) مختصر قيام الليل، للمروزي، ص ١٥١.

(٢) ذكر ذلك صاحب الإحياء، ٨٤٧؛ وكذلك النووي في التبيان، ص ٦٢؛ وقال محقق الكتاب مجدي السيد إبراهيم: أخرجه الطبراني في الكبير، رقم ١٢٥١؛ وإسناده صحيح.

(٣) مختصر منهاج القاصدين، ص ٦٨.

(٤) الأذكار، ص ٩٠.

(٥) مفتاح دار السعادة، ١ / ٢٢٢.

على معاني الكلام، وشهادة وصف المتكلم، من الوعد بالتشوق، والوعيد بالخوف، والإنذار بالتشديد؛ فهذا قارئ أحسن الناس صوتاً بالقرآن، وفي مثل هذا قال ـ تعالى ـ: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة: ١٢١]، وهذا هو الراسخ في العلم، جعلنا الله من هذا الصنف، ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤]»[١].

«وينبغي للتالي أن يستوضح من كل آية ما يليق بها، ويتفهم ذلك، فإذا تلا قوله ـ تعالى ـ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١]، فليعلم عظمته ويتلمح قدرته في كل ما يريد، وإذا تلا: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨]، فليتفكر في نطفة متشابهة الأجزاء كيف تنقسم إلى لحم وعظم، . . . وإذا تلا أحوال المعذبين فليستشعر الخوف من السطوة إن غفل عن امتثال الأمر. وينبغي لتالي القرآن أن يعلم أنه المقصود بخطاب القرآن ووعيده، وأن القصص لم يرد بها السمر بل العبر، فحينئذ يتلو تلاوة عبد كاتبه سيده بمقصود، وليتأمل الكتاب وليعمل بمقتضاه»[٢].

يقول القرطبي ـ رحمه الله ـ: «فالواجب على من خصه الله بحفظ كتابه أن يتلوه حق تلاوته، ويتدبر حقائق عباراته، ويتفهم عجائبه، ويتبين غرائبه»[٣].

ويقول الحكيم الترمذي ـ رحمه الله ـ عن حرمة القرآن: «وأن يقرأه على تؤدة وترسُّل وترتيل، ومن حرمته أن يستعمل فيه ذهنه وفهمه حتى يعقل ما يُخَاطَب به، ومن حرمته أن يقف على آية الوعد فيرغب إلى الله ويسأله من فضله، وأن يقف على آية الوعيد فيستجير بالله منه»[٤].

---

(١) البرهان، للزركشي، ٢ / ١٩٧.
(٢) مختصر منهاج القاصدين، ص ٦٨.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، ١ / ٢.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، ١ / ٢٧، وعزاه إلى (نوادر الأصول).

وتقدم قول ابن القيم - رحمه الله -: «فإذا قرأه بتفكر حتى إذا مر بآية وهو محتاج إليها في شفاء قلبه، كررها ولو مائة مرة ولو ليلة، فقراءة آية بتفكر وتفهم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهم، وأنفع للقلب، وأدعى إلى حصول الإيمان، وذوق حلاوة القرآن»(١).

ويقول ابن قدامة - رحمه الله -: «وليعلم أن ما يقرأه ليس كلام بشر، وأن يستحضر عظمة المتكلم سبحانه، ويتدبر كلامه؛ فإن التدبر هو المقصود من القراءة، وإن لم يحصل التدبر إلا بترديد الآية فليرددها»(٢).

ويقول ابن مفلح - رحمه الله -: «قال القاضي: أقل الترتيل ترك العجلة في القرآن عن الإبانة، وأكمله أن يرتل القراءة ويتوقف فيها، . . . والتفهم فيه والاعتبار فيه مع قلة القراءة، فهو أفضل من إدراجه بغير فهم. قال الإمام أحمد - رحمه الله -: يحسِّن القارئ صوته بالقرآن ويقرؤه بحزن وتدبر، وهو معنى قوله ﷺ: (ما أذن الله لشيء كأذنه لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به)(٣)»(٤).

ووصف السيوطي - رحمه الله - الوقوف عند المعاني بقوله: «أن ينشغل قلبه بالتفكر في معنى ما يلفظ به، فيعرف كل آية، ويتأمل الأوامر والنواهي، ويعتقد قبول ذلك؛ فإن كان مما قصر عنه فيما مضى اعتذر واستغفر، وإذا مر بآية رحمة استبشر وسأل، أو عذاب أشفق وتعوّذ، أو تنزيه نزّه وعظّم، أو دعاء تضرّع وطلب»(٥).

---

(١) مفتاح دار السعادة، ص ٤٠٢.

(٢) مختصر منهاج القاصدين، ص ٦٨.

(٣) أخرجه البخاري، رقم ٥٠٢٤؛ ومسلم، رقم ٢٩٧، ٢٣٣؛ والنسائي، ٢ / ١٨٠؛ وأبو داود، رقم ١٤٧٣، من حديث أبي هريرة.

(٤) الآداب الشرعية، ٢ / ٢٩٧.

(٥) الإتقان في علوم القرآن، ١ / ١٤٠.

فعلى القارئ أن يجمع ـ عند الوقوف على المعاني ـ بين معنى اللفظ والمعنى المقصود في الآية، ولذلك قال السعدي ـ رحمه الله ـ: «وكان الذي ينبغي في ذلك أن يجعل المعنى هو المقصود، واللفظ وسيلة إليه، فينظر في سياق الكلام وما سيق لأجله[1]، ويقابل بينه وبين نظيره في موضع آخر، ويعرف أنه سيق لهداية الخلق كلهم عالمهم وجاهلهم وحضريهم وبدويهم. . . فمن وفق لذلك لم يبق عليه إلا الإقبال على تدبره وتفهمه، وكثرة التفكر في ألفاظه ومعانيه، ولوازمه وما تتضمنه»[2]، «وما يدل عليه منطوقاً ومفهوماً؛ فإذا بذل وسعه في ذلك فالرب أكرم من عبده؛ فلا بد أن يفتح عليه من علومه أموراً لا تدخل تحت كسبه»[3].

ومن هنا ينبغي أن يكون الهم الأعظم للصالحين في رمضان وغيره: كم مرة تأثرت بالقرآن؟ لا: كم مرة ختمت القرآن؟

خامساً: معرفة أساليب القرآن:

ومن لم يعرف أساليب القرآن سيجد نفسه غريباً عن آيات القرآن وتراكيب جمله، وسيعاني لفهمها ما يعاني. «ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنوناً ظاهرة وخفية من حيث اللفظ ومن جهة المعنى، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، فأحكمت ألفاظه وفصلت معانيه، فكل من لفظه ومعناه فصيح لا يحاذى ولا يدانى، صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأحكام، فكله حق وصدق وعدل وهدى، ليس فيه

---

(١) انظر: (الطريق إلى استنباط الحكم واستخراج الأحكام) ص ٨٣ من هذا الكتاب.

(٢) قال أبو هلال العسكري ـ رحمه الله ـ: «دلالة الآية على الشيء هو ما يمكن الاستدلال به على ذلك الشيء، كقوله: (الحمد لله)، يدل على معرفة الله. وتضمين الآية هو احتمالها للشيء بلا مانع»، (الفروق اللغوية)، ص٦٢.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، ١٢.

مجازفة، إن تأملت أخباره وجدتها في غاية الحلاوة، سواء كانت مبسوطة أم وجيزة، وسواء تكررت أم لا، وكلما تكرر حلا وعلا، لا يَخلق عن كثرة الرد، ولا يمل منه العلماء، وإن أخذ في الوعيد والتهديد جاء منه ما تقشعر منه الجبال الصم الراسيات؛ فما ظنك بالقلوب الفاهمات؟! وإن وعد أتى بما يفتح القلوب والآذان، ويسوق إلى دار السلام، ومجاورة عرش الرحمن»(١).

ويفصل القرطبي ـ رحمه الله ـ عشرة أوجه لإعجاز القرآن فيقول:

«**أولها**: النظم البديع لكل نظم معهود في لسان العرب.

ثانيها: الأسلوب المخالف لجميع أساليب العرب.

وثالثها: الجزالة التي لا تصح من مخلوق بحال، وتأمل ذلك في قوله ـ سبحانه ـ: ﴿**وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾ [الزمر: ٦٧]، قال ابن الحصار: فمن علم أن الله ـ سبحانه ـ هو الحق؛ علم أن مثل هذه الجزالة لا تصح في خطاب غيره، ولا يصح من أعظم ملوك الدنيا أن يقول: ﴿**لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ**﴾ [غافر: ١٦]، ولا أن يقول: ﴿**وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ**﴾ [الرعد: ١٣]. وقال ابن الحصار: وهذه الثلاث: من النظم والأسلوب والجزالة، لازمة كل سورة، بل هي لازمة كل آية، وبمجموع هذه الثلاث يتميز مسموع كل آية وكل سورة عن سائر كلام البشر، وبها وقع التحدي والتعجيز. ومع هذا كله فكل سورة تنفرد بهذه الثلاثة، من غير أن ينضاف إليها أمر آخر من الوجوه العشرة.

ورابعها: التصرف في لسان العرب على وجه لا يستقل به عربي.

وخامسها: الإخبار عن الأمور التي تقدمت وقت نزوله.

وسادسها: الوفاء بالوعد كوعده بنصرة رسوله عليه السلام.

---

(١) تفسير ابن كثير، ١ / ٥٨، بتصرف يسير.

وسابعها: الإخبار عن المغيبات في المستقبل التي لا يُطَّلع عليها إلا بالوحي.

وثامنها: ما تضمنه القرآن من العلم الذي هو قوام جميع الأنام.

وتاسعها: الحِكَم البالغة التي لم تجر العادة بأن تصدر في كثرتها وشرفها من آدمي.

وعاشرها: التناسب في جميع ما تضمنه ظاهراً وباطناً، من غير اختلاف»[١].

* ومن أساليب القرآن: أن الله يختم الآيات بأسماء الله الحسنىٰ، «ليدل علىٰ أن الحُكم المذكور له تعلق بذلك الاسم الكريم، وهذه قاعدة لطيفة نافعة، عليك بتتبعها في جميع الآيات المختومة بها، تجدها في غاية المناسبة، وتدلك علىٰ أن الشرع والأمر والخلق كله صادر عن أسمائه وصفاته ومرتبط بها، وهذا باب عظيم في معرفة الله ومعرفة أحكامه، وهو من أجلِّ المعارف، وأشرف العلوم»[٢].

* ومن أساليب القرآن: أنه «احتوىٰ علىٰ أحسن طرق التعليم، وإيصال المعاني إلىٰ القلوب بأيسر شيء وأوضحه، فمن أنواع تعليمه العالي: ضرب الأمثال... ويقصد بذلك كله توضيح المعاني النافعة، وتمثيلها بالأمور المحسوسة؛ ليصير القارئ كأنه يشاهد معانيها رأي العين، وهذا من عناية الباريء بعباده ولطفه به»[٣].

---

(١) بإيجاز من الجامع لأحكام القرآن، ١ / ٧٣؛ وحين ذكر الماوردي ـ رحمه الله ـ وجوه الإعجاز، ذكر منها: «البلاغة؛ حيث ألفاظه يسيرة كثيرة المعاني، والبيان والفصاحة، والعجز عن مجاراته، والوصف البديع، وأن قارئه لا يمل ولا يكل، و إخباره عن الأمور الماضية، وإخباره عن المغيبات القادمة، وجمعه لعلوم لا تتعاطاها العرب، ولا يحيط بها علماء الأمم». انظر: النكت والعيون، ١ / ٣٠.

(٢) القواعد الحسان، للسعدي رحمه الله، ص ٥١؛ القاعدة ١٩.

(٣) المرجع السابق، ص ٦٥، القاعدة ٢٢؛ وقد ضرب لذلك عدة أمثلة.

وقد ذكر الزركشي - رحمه الله - [(١)] اثنين وأربعين أسلوباً من أساليب القرآن؛ منها: التوكيد، والحذف، والتقديم، والاستطراد، والالتفاف، والتضمين، والتعبير عن المستقبل بلفظ الماضي وعكسه، والتوسع، والإعراض، والتورية، والطباق، . . . وذكر للتوكيد ثمانية وعشرين قسماً.

* ومن أساليب القرآن: الوصف الحي بالصورة المحسوسة، والحركة المتجددة النابضة بالحقيقة المفعمة بالإيحاء الآسر، فإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية، وإذا الحوادث والقصص والمناظر شاخصة حاضرة، فإذا انضم إليها الحوار استوت للقارئ عناصر التأثير فينسى أن هذا كلام يتلى، أو مثل يضرب، فيتفاعل مع الحدث لا مع حكاية الحدث[(٢)]؛ فتجتمع آفاق الوصف والحوار، ووقع الكلام، وسياق العبارة في عرض الصورة أو المشهد عرضاً يملأ العين والأذن، ويأخذ بالحس والخيال، والفكر والوجدان، فينتقل الأثر من الحس إلى أعماق النفس، وهذه سمة القرآن، وهي معجزة من معجزاته[(٣)].

* ومن أساليب القرآن: الحذف. وقد ذكر أمثلة على ذلك ابن القيم - رحمه الله - فقال: «وهو - سبحانه - يذكر جواب القسم تارة، وهو الغالب، وتارة يحذفه، كما يحذف جواب (لو) كقوله - تعالى - : ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٥]، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ﴾ [الرعد: ٣١]، ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ﴾ [الأنفال: ٥٠]، ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ

(١) في كتابه البرهان في علوم القرآن، تحت عنوان: أساليب القرآن وفنونه البليغة، من ٢ / ٣٩٧، وحتى ٤ / ١٤١.

(٢) وقد أشار إلى نحو هذا ابن كثير في بيان نقص كلام البشر - حتى ما كان في أجوده من الشعر - فهو كما قال: (لا يفيد شيئاً إلا قدرة المتكلم على الخفي أو الدقيق)، تفسير ابن كثير، ١ / ٥٨.

(٣) اقتباس من كتاب التصوير الفني في القرآن، لسيد قطب رحمه الله، ص ٣٦، ٢٤١، وقد ذكر في أول كتابه أن هذا الأسلوب هو مصدر تأثير القرآن على المسلمين الأوائل، وذكر في عامة كتابه أمثلة على بيان أسلوب التصوير الفني في القرآن.

وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٣٠]، ومثل هذا الحذف من أحسن الكلام؛ لأن المراد أنك لو رأيت ذلك لرأيت هولاً عظيماً، وهذه عادة الناس في كلامهم إذا رأوا أموراً عجيبة وأرادوا أن يخبروا بها غائباً عنها، يقول أحدهم: لو رأيت ما جرىٰ يوم كذا»[١].

* ومن أساليب القرآن: ورود الخبر والمراد به الحث أو الزجر[٢]، ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦ - ١٤٧]، وقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١]، وقوله: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣ - ١١٤]. ومثال ذلك في الزجر والنهي كقوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣]، ومثل ذلك قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾ [البقرة: ٨٤]، وهو أبلغ من صريح الأمر أو النهي، كأنه سورع فيه إلى الامتثال والخبر عنه[٣].

---

(١) التبيان في أقسام القرآن، ص ٤.

(٢) انظر: البرهان، للزركشي، ٣ / ٤٠٤؛ وقبس من الإعجاز، ص ٣٤. لهشام الحمصي.

(٣) قاله الزمخشري ـ رحمه الله ـ ثم أورد مثالين من السنَّة، ثم قال: كلاهما لفظه لفظ الخبر، والمراد به النهي، وهو أبلغ في النهي. نقلاً عن البرهان، ٣ / ٤٠٤.

* ومن أساليب القرآن: الالتفات، وقد قال عنه الزركشي - رحمه الله -: «وهو نقل الكلام من أسلوب إلىٰ أسلوب آخر تطريةً واستدراراً للسامع، وتجديداً لنشاطه، وصيانة لخاطره من الملال والضجر بدوام الأسلوب الواحد علىٰ سمعه»(١)، ثم ذكر - رحمه الله - أقسامه وأسبابه وشرطه. وعدَّ أنواعه فقال:

«**الأول**: الالتفات من المتكلم إلىٰ الخطاب، كقوله: ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ**﴾ [الفتح: ١، ٢]، ولم يقل: لنغفر لك.

الثاني: من المتكلم إلىٰ الغيبة، كقوله: ﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ**﴾ [الكوثر: ١، ٢]، ولم يقل: فصلِّ لنا.

الثالث: من الخطاب إلىٰ المتكلم، كقوله: ﴿**قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ**﴾ [يونس: ٢١].

الرابع: من الخطاب إلىٰ الغيبة، كقوله: ﴿**حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم**﴾ [يونس: ٢٢]، ولم يقل: وجرين بكم.

الخامس: من الغيبة إلىٰ المتكلم، كقوله: ﴿**وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝٨٨ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا**﴾ [مريم: ٨٨، ٨٩].

السادس: من الغيبة إلىٰ الخطاب، كقوله: ﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم**﴾ [آل عمران: ١٠٦]».

ثم ذكر - رحمه الله - ما هو قريب من الالتفات، وهو تغير الضمير في الكلام من الجمع إلىٰ مفرد ونحوه، وكذلك تغير الأفعال في الآية من مضارع إلىٰ ماضي ونحوه. وقد ضرب - رحمه الله - لذلك عدة أمثلة(٢).

* ومن أساليب القرآن في الحث: التذكير بالآمر وعظمته، أو التشويق

(١) البرهان، ٣/ ٣٦٣.
(٢) يطول المقام بذكرها، انظر: البرهان، ٣/ ٣٨٣.

للأجر وكثرته(١)، أو التذكير بمنزلة المأمور وحاجته إلى ربه، أو الإغراء، أو التهييج(٢)، أو التحريض، أو الثناء على من فعله، أو ذكر رفعته وعاقبته في الدنيا، أو ذكر أجره في الآخرة، أو عطفه على ما هو أجل منه(٣)، وما هو معظَّمٌ عند النفوس(٤)، أو الاعتبار بحياة الأنبياء وأعيان الصالحين.

* ومن أساليب القرآن في النهي: التبغيض للفعل، أو التهكم بأصحابه أو السخرية منهم، أو ذكر عاقبة من فعله في الدنيا، أو وصف خسارته في الآخرة، أو عطفه على ما هو أشنع منه، وما هو مكروه عند النفوس، أو الاعتبار بالأمم الظالمة وأعيان المعاندين(٥).

* ومن الأساليب المشتركة في الحث والنهي: التشبيه، والكناية، والتضمين، والمقارنة، والقصص، والتأكيد، والتخصيص، والتفصيل والإجمال، والتقديم والتأخير، والالتفات، والتلميح، وضرب الأمثال، وبيان الحكمة، وختم الآية بما يناسبها من أسماء الله وصفاته، وختم السور بما يناسبها.

* ومن أساليب القرآن: اختلاف مساق إيراد القصص، ويقول الشاطبي ـ رحمه الله ـ عن ذلك: «ذكر قصص الأنبياء ـ عليهم السلام ـ كنوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى وهارون؛ فإنما ذلك تسلية لمحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وتثبيت فؤاده؛ لما كان يلقى من عناد الكفار وتكذيبهم له، على أنواع مختلفة، فَتُذكر القصة على النحو الذي يقع له مثله، وبذلك اختلف مساق القصة الواحدة بحسب اختلاف الأحوال»(٦).

---

(١) كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠].

(٢) انظر: كلام ابن كثير ـ رحمه الله ـ المتقدم، ص ٨٦.

(٣) كقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

(٤) كقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١].

(٥) انظر: تعليق القرطبي ـ رحمه الله ـ المتقدم، ص ٨٥.

(٦) الموافقات، ٣/ ٨٥٩.

وقال الطبري ـ رحمه الله ـ: «معاني كتاب الله المنزل على نبينا محمد ﷺ لمعاني كلام العرب موافقة، وظاهره لظاهر كلامها ملائماً؛ . . . فإذ كان ذلك كذلك، . . . كان موجوداً في كلام العرب الإيجاز والاختصار، والاجتزاء بالإخفاء من الإظهار، وبالقلة من الإكثار في بعض الأحوال، واستعمال الإطالة والإكثار، والترداد والتكرار، وإظهار المعاني بالأسماء دون الكناية عنها، والإسرار في بعض الأوقات، . . . وعن الكناية والمراد منه المصرح، وعن الصفة والمراد الموصوف، وعن الموصوف والمراد الصفة، وتقديم ما هو في المعنى مؤخر، وتأخير ما هو في المعنى مقدم، والاكتفاء ببعض عن بعض، وبما يظهر عما يُحذف، وإظهار ما حظه الحذف، . . . يكون ما في كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ من ذلك، في كل ذلك له نظير، وله مثل وشبيه»[1].

سادساً: تدارس القرآن:

ومن فاته شيء من السبل السابقة، فلا أقل من أن يتدارس القرآن مع أهل العلم والفضل، بحضور حلق العلم أو بالسؤال أو المناقشة. ومن أبلغ الدلائل على فضيلة مدارسة القرآن ما ثبت عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «ما اجتمع قوم يتلون كتاب الله عز وجل؛ ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»[2].

مدارسة الرسول ﷺ للقرآن:

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «كان رسول الله ﷺ أجود الناس،

(١) مقدمة الطبري لتفسيره، ١ / ٣٠.

(٢) رواه مسلم، رقم ٢٦٩٩؛ والترمذي، رقم ٢٦٤٦؛ أبو داود، رقم ٣٦٤٣؛ وابن ماجه، رقم ٢٢٥؛ وأحمد، ٢ / ٢٥٢، ٤٠٧؛ وابن حبان، ٨٤.

وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان جبريل يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة»[١].

يقول سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز ـ رحمه الله ـ عن هذا الحديث: «يستفاد منه المدارسة، وأنه يستحب للمؤمن أن يدارس القرآن من يفيده وينفعه؛ لأن رسول الله ﷺ دارس جبرائيل للاستفادة؛ لأن جبرائيل هو الذي يأتي من عند الله جل وعلا، وهو السفير بين الله والرسل، فجبرائيل لا بد أن يفيد النبي ﷺ أشياء من جهة حروف القرآن، ومن جهة معانيه التي أرادها الله، فإذا دارس الإنسان من يعينه على فهم القرآن، ومن يعينه على إقامة حروفه فهو المطلوب.

وفيه فائدة أخرى: وهي أن المدارسة في الليل أفضل من النهار؛ لأن هذه المدارسة كانت في الليل، ومعلوم أن الليل أقرب إلى اجتماع القلب وحضوره، والاستفادة أكثر من مدارسة النهار. وفيه أيضاً من الفوائد: شرعية المدارسة وأنها عمل صالح، حتى ولو في غير رمضان؛ لأن فيها فائدة لكل منهما، ولو كانوا أكثر من اثنين فلا بأس، يستفيد كل منهم من أخيه ويشجعه على القراءة، وينشطه... مع عظم الفائدة فيما يحصل بينهم من المذاكرة، والمطالعة فيما يُشْكل عليهم، كل ذلك فيه خير كثير»[٢].

مدارسة الصحابة للقرآن:

على الرغم من أن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ كانوا أقرب الناس إلى القرآن معايشةً ولغةً وفهماً؛ فإنهم ـ رضي الله عنهم ـ كانوا لا يتركون مدارسة القرآن، يقول ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: «لقد عشنا دهراً طويلاً وإن أحدنا يؤتى الإيمان

(١) رواه البخاري، ٤ / ٩٩؛ ومسلم، رقم ٢٣٠٧.
(٢) الجواب الصحيح في أحكام صلاة الليل والتراويح، ص ١٢.

قبل القرآن، فتنزل السورة علىٰ محمد ﷺ فيتعلم حلالها، وحرامها، وآمرها، وزاجرها، وما ينبغي أن يقف عنده منها»(١).

عن أبي عبد الرحمن السلمي(٢) قال: «حدثنا الذين يُقرئوننا عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما؛ أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتىٰ يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً»(٣).

وفي رواية أخرىٰ يقول: «كنا إذا تعلمنا عشر آيات من القرآن لم نتعلم العشر التي بعدها حتىٰ نعرف حلالها وحرامها، وأمرها ونهيها»(٤).

ولقد كان هذا نهج أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فعن عبد الله بن أبي مليكة قال: إن عائشة ـ رضي الله عنها ـ كانت لا تسمع شيئاً لا تفهمه إلا راجعت فيه حتىٰ تفهمه، وأن النبي ﷺ قال: «من حوسب عذب». قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: فقلت: أليس يقول الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٧، ٨]؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنما ذلك العرض، وليس أحدٌ يُناقَش الحساب يوم القيامة إلا عُذِّب»(٥).

قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ: «وفي الحديث ما كان عند عائشة من الحرص

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط، قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح، ١ / ٦٥؛ انظر: حياة الصحابة، ٣ / ٧٥.

(٢) هو عبد بن حبيب الكوفي المقرئ من كبار التابعين ثقة ثبت، ولأبيه صحبة؛ انظر: تقريب التهذيب، ١ / ٤٠٨.

(٣) الطبري، ١ / ٢٨؛ وتفسير ابن كثير، ١ / ١٠؛ وجامع أحكام القرآن، ١ / ٣٩؛ وزاد المسير، ١ / ٤؛ ورواه الإمام أحمد، وفي إسناده عطاء بن السائب اختلط في آخر عمره، انظر: مجمع الزوائد، ١/ ١٦٥؛ والفتاوىٰ، ١٣ / ٤٠٢؛ والقاعدة المراكشية، ص ٢٨.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، ١ / ٣٩، وعزاه لعبد الرزاق؛ ورواه ابن سعد، ٦ / ٧٢؛ والهيثمي، ١ / ١٦٥؛ وأحمد، ٥ / ٤١٠؛ والكنز ١٢٣. انظر: حياة الصحابة، ٣/ ١٧٥.

(٥) أخرجه البخاري، رقم ٦٥٣٧، ٦٥٣٦، ١٠٣، الفتح، ١١ / ٤٠٠.

علىٰ تفهُّم معاني الحديث، وأن النبي ﷺ لم يكن يتضجر من مراجعة العلم. وفيه جواز المناظرة، ومقابلة السنَّة بالكتاب، . . . وقد وقع نحو ذلك لغير عائشة، ففي حديث حفصة أنها لما سمعت: «لا يدخل النار أحدٌ شهد بدراً والحديبية» قالت: أليس الله يقول: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]. فأجيبت بقوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَواْ﴾ [مريم: ٧٢] الآية. وسأل الصحابة لما نزلت: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]، أينا لم يظلم نفسه؟ فأجيبوا بأن المراد بالظلم الشرك. والجامع بين هذه المسائل الثلاث ظهور العموم في الحساب والورود والظلم، فأوضح لهم أن المراد في كل منها خاص، ولم يقع مثل هذا من الصحابة إلا قليل مع توجه السؤال وظهوره، وذلك لكمال فهمهم ومعرفتهم باللسان العربي، فيحمل ما ورد من ذم من سأل عن المشكلات علىٰ من سأل تعنتاً»(١).

وعن عائشة - رضي الله عنها - قال: «سألت النبي ﷺ عن هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]. قالت عائشة - رضي الله عنها -: هم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: لا يا بنت الصديق! ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم خائفون أن لا يقبل منهم ﴿أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١]»(٢).

وعن الحسن - رحمه الله - أنه قال في هذه الآية: «إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة، وإن المنافق جمع إساءة وأمناً»(٣).

وعن أنس - رضي الله عنه - قال: جاء أناس إلىٰ النبي ﷺ فقالوا: ابعث معنا

---

(١) الفتح، ١ / ١٩٧.

(٢) أخرجه الترمذي، ٢ / ٢٠١؛ وابن جرير، ١٨ / ٢٦، وعنده رواية أخرىٰ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ وأخرجه الحاكم، ٢/ ٣٩٣، ٣٩٤، وصححه ووافقه الذهبي؛ ورواه البغوي في تفسيره، ٦ / ٢٥؛ وأحمد، ٦/ ١٥٩، ٢٠٥؛ وصححه الألباني - رحمه الله - في الصحيحة ١٦٢، ١ / ٣٠٤، وقد ذكر متابعات الحديث.

(٣) الزهد، لابن المبارك، ٣٥٠.

رجالاً يعلمونا القرآن والسنَّة. فبعث إليهم رجالاً من الأنصار يقال لهم القراء، يقرؤون القرآن ويتدارسون بالليل يتعلمون، وكانوا في النهار يجيئون بالماء فيضعونه في المسجد، ويحتطبون فيبيعونه، ويشترون الطعام لأهل الصُّفَّة وللفقراء، فبعثهم النبي ﷺ، فعرضوا لهم فقتلوهم قبل أن يبلغوا المكان، وأتى رجل حرامَ بن ملحان - خال أنس - من خلفه فطعنه برمح حتى أنفذه، فقال حرام: فزتُ وربِّ الكعبة! فقال رسول الله ﷺ: «إن إخوانكم قد قُتلوا، وإنهم قالوا: اللهم بلغ نبينا، أنا قد لقينا ربنا، فرضينا عنك ورضيت عنا»(١).

ويروى عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - قال: «كان النبي ﷺ إذا صلى الفجر انحرفنا إليه؛ فمنا من يسأله عن القرآن، ومنا من يسأله عن الفرائض»(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما؛ أنه تمارى هو والحُرُّ بن قيس بن حصن الفَزاري في صاحب موسى، قال ابن عباس: هو الخضر. فمر بهما أُبيّ بن كعب رضي الله عنه، فدعاه ابن عباس - رضي الله عنهما - فقال: «إني تماريت أنا وصاحبي هذا، في صاحب موسى الذي سأل موسى السبيل إلى لُقِيِّه، هل سمعت النبي ﷺ يذكر شأنه؟ قال: نعم! سمعت رسول الله ﷺ يقول: بينما موسى في ملأ من بني إسرائيل جاءه رجل فقال: هل تعلمُ أحداً أعلَمَ منك؟ قال موسى: لا. فأوحى الله إلى موسى: بلى عبدُنا خَضِر. فسأل موسى السبيل إليه»(٣).

---

(١) رواه البخاري، ٦ / ١٤؛ ومسلم واللفظ له، ٣ / ١٥١١، رقم ١٤٧.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير، انظر: حياة الصحابة، ٣ / ٢١٦؛ وقال في مجمع الزوائد: (وفيه محمد بن عمر، ضعفه أبو داود، وأبو زرعة، ووثقه ابن حبان)، ١ / ٤٩٥.

(٣) البخاري، ٣ / ٧٤، الفتح، ١ / ١٦٨، ٣ / ٧٨، باب (ما ذكر في ذهاب موسى في البحر إلى الخضر عليهما السلام)، وباب (الخروج في طلب العلم). قال ابن حجر: (وفيه فضل الازدياد من العلم ولو مع المشقة والنصب بالسفر، وخضوع الكبير لمن يتعلم منه، ووجه الدلالة منه قوله - تعالى - لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] وموسى منهم؛ فتدخل أمة النبي محمد ﷺ تحت هذا الأمر إلا فيما ثبت نسخه)، الفتح، ١ / ١٧٥.

وعن عبيد بن عمير ـ رحمه الله ـ قال: قال عمر ـ رضي الله عنه ـ يوماً لأصحاب النبي ﷺ: «فيم ترون هذه الآية نزلت: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ﴾ [البقرة: ٢٦٦]؟ قالوا: الله أعلم. فغضب عمر، وقال: قولوا نعلم أو لا نعلم. فقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين. قال عمر: يا ابن أخي، قل ولا تحقر نفسك. قال ابن عباس: ضربت مثلاً لعمل، قال عمر: أي عمل؟ قال ابن عباس: لعمل. قال عمر: لرجل غني يعمل بطاعة الله عز وجل، ثم بعث الله له شيطان، فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله»[١] قال ابن حجر: «وفيه تحريض العالم تلميذه على القول بحضرة من هو أسن منه إذا عرف فيه الأهلية؛ لما فيه من تنشيطه، وبسط نفسه، وترغيبه في العلم»[٢]. وفيه أيضاً تعويد الناشئة على المدارسة، والمدارسة مع الناشئة: تعليماً لهم، وتربيةً وتزكية لنفوسهم، وتدريباً لعقولهم. ومع الأقران: تنشيطاً لهمتهم، وتقويةً لحفظهم، وشحذاً لعزيمتهم. ومع الأكابر: أخذاً للعلم عنهم، واقتداءً بهديهم وسمتهم في الاستنباط.

وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «الدراسة صلاة»[٣]. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «تذاكر العلم بعض ليلة أحب إليَّ من إحيائها»[٤].

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «ملاقاة الرجال تلقيح لألبابها، فالمذاكرة بها لقاح العقل»[٥].

(١) رواه البخاري، رقم ٤٥٣٨.
(٢) فتح الباري، ٨/ ٢٠٢.
(٣) جامع بيان العلم، لابن عبد البر، ١/ ٢٢.
(٤) المرجع السابق، ١/ ٢٤.
(٥) مفتاح دار السعادة، ص ٢١٧.

المبحث الثامن

صور من تدبُّر القرآن

صور من تدبر القرآن

ولتدبر القرآن والتأثر به صورٌ كثيرة تحتوي على تدارسه والسؤال عنه، واستخراج حكمه وأحكامه، والوقوف عند معانيه، والتزام أوامره، والوقوف عند حدوده. ولعل مما يفيد في عرض الأمثلة الآتية أن نضع عنواناً مناسباً لكل مثال، يصلح أن يكون طريقةً تتخذ في مواطن أخرى:

الالتزام بالأمر:

وذلك في التزام رسول الله ﷺ للتسبيح، والتحميد، والاستغفار، بعد نزول سورة النصر، فعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «ما صلى النبي ﷺ بعد أن نزلت عليه ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] إلا يقول فيها: سبحانك ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي»(١).

وعنها - رضي الله عنها - قالت: «كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي. يتأول القرآن»(٢).

تذكُّر الآية عند مقتضاها:

وذلك كما جاء في تذكر رسول الله ﷺ لقوله - تعالى -: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨]، وذلك فيما يرويه أبو هريرة - رضي الله عنه - حيث قال: «خرج النبي ﷺ ذات ليلة فإذا هو بأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فقال: ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟ قالا: الجوع يا رسول الله. قال: والذي

(١) رواه البخاري، رقم ٤٩٦٧؛ ورواه مسلم، ٤ / ٢١٩.

(٢) أخرجه البخاري، رقم ٤٩٦٨؛ ومسلم، ٤ / ٢١٧.

نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما، قوما. فقاما معه، فأتىٰ رجلاً من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأة قالت: مرحباً وأهلاً. فقال لها رسول الله ﷺ: أين فلان؟ قالت: ذهب يستعذب لنا. إذ جاء الأنصاري فنظر إلىٰ رسول الله ﷺ وصاحبيه. ثم قال: الحمد لله، ما أحد اليوم أكرم أضيافاً مني. قال: فانطلق، فجاء لهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب. فقال: كلوا من هذا. ثم أخذ المدية، فقال رسول الله ﷺ: إياك والحلوب. فذبح لهم، فأكلوا من الشاة، ومن ذلك العذق، وشربوا فلما شبعوا ورووا. قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: والذي نفسي بيده! لتُسألن عن هذا النعيم يوم القيامة؛ أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتىٰ أصابكم هذا النعيم»(١).

اتباع أحسنه(٢):

عن أنس - رضي الله عنه - قال: «كان أبو طلحة - رضي الله عنه - أكثر أنصاريٍّ بالمدينة مالاً، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، فلما نزلت هذه الآية: ﴿**لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾ [**آل عمران**: ٩٢]، قام أبو طلحة - رضي الله عنه - إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن الله يقول في كتابه: ﴿**لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾ [**آل عمران**: ٩٢]، وإن أحب أموالي بيرحاء، وإنها صدقة لله، أرجو برها وذخرها عند الله؛ فضعها يا رسول الله، حيث شئت. قال رسول الله ﷺ: بخ! ذلك مال رابح، قد سمعت ما قلت فيها، وإني أرىٰ أن تجعلها في الأقربين. فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه»(٣).

---

(١) أخرجه مسلم، رقم ٢٠٣٨؛ ومالك في الموطأ، ٢ / ٩٣٢؛ والترمذي، رقم ٢٣٧٠، وفي روايته ذكر أن الأنصاري هو الهيثم بن التيهان رضي الله عنه.

(٢) بمعنىٰ اتباع عزائمه وفضائله، والمبادرة إلىٰ ما ندب إليه، انظر معنىٰ قوله - تعالىٰ -: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٨] في زاد المسير، ٣ / ٩٩، ٧ / ٤٧.

(٣) أخرجه البخاري، رقم ٢٧٥٨، ٢٧٦٩، ٥٦١١؛ ومسلم، رقم ٩٩٨.

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: «حضرتني هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، فذكرت ما أعطاني الله، فلم أجد شيئاً أحب إليَّ من مرجانة، جارية لي رومية، فقلت: هي حرة لوجه الله، فلو أني أعود في شيء جعلته لله لأنكحتها نافعاً»[١].

ولما نزلت تلك الآية قال زيد بن حارثة ـ رضي الله عنه ـ: «اللهم! إنك تعلم أنه ليس لي مال أحب إليَّ من فرسي هذه. فجاء بها إلى النبي ﷺ فقال: هذه في سبيل الله. فقال رسول الله ﷺ: قد قبله الله منك»[٢].

إني أحب أن يغفر الله لي:

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «لما أنزل الله في براءتي، قال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ وكان ينفق على مسطح بن أُثاثة لقرابته وفقره ـ: والله! لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال. فأنزل الله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]، قال أبو بكر: بلى والله، إني أحب أن يغفر الله لي. فرجع إلى النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً»[٣].

موضوع السورة:

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «كان عمر ـ رضي الله عنه ـ يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه، فقال: لِمَ يدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟! فقال عمر: إنه من حيث علمتم»، فدعاه ذات يوم فأدخله معهم، «فما

---

(١) أخرجه عبد بن حميد والبزار، انظر: الفتح، ٨/ ٢٢٤، ونحو هذه الرواية في المستدرك، ٣/ ٥٦٨. ولمزيد من المواقف انظر: تفسير القرطبي، ٤/ ١٣٣، إرشاد العقول، لأبي السعود، ٤/ ٥٨.

(٢) تفسير الطبري، ٦/ ٥٩٢.

(٣) رواه البخاري، رقم ٤٧٥٠.

رئيت أنه دعاني يومئذ إلا ليريهم، قال: ما تقولون في قول الله - تعالى - : ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١]، قال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا. وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً. فقال لي: أكذا يا ابن عباس؟! فقلت: لا. قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له، قال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١]، وذلك علامة أجلك، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ٣]. فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول»(١).

المناسبة بين الآيات:

المثال الأول: في سورة الفاتحة: قال القرطبي - رحمه الله -: «وصف الله نفسه - تعالى - بعد: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] بأنه: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾؛ لأنه لما كان في اتصافه بـ ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ترهيب، قرنه بـ ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ لما تضمنه من الترغيب؛ ليجمع في صفاته بين الرهبة منه والرغبة إليه، فيكون أعون على طاعته وأمنع»(٢).

المثال الثاني: في سورة البقرة: في قوله - تعالى -: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٤، ١٦٥]، قال القرطبي - رحمه الله -: «لما أخبر الله - سبحانه وتعالى - في الآية قبلُ ما دلَّ على وحدانيته وقدرته وعِظَم سلطانه؛ أخبر أنه مع هذه الآيات - القاهرة لذوي العقول - من يتخذ معه أنداداً»(٣).

---

(١) رواه البخاري، رقم ٤٩٧٠؛ والترمذي، رقم ٣٣٥٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ١ / ١٣٩، ونقل ابن كثير هذا القول إقراراً له في تفسيره، ١ / ٥٠.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ٢ / ٢٠٣.

وقال السعدي ـ رحمه الله ـ عن ذلك: «ما أحسن اتصال هذه الآية بالتي قبلها؛ فإنه ـ تعالىٰ ـ لما بين وحدانيته وأدلتها القاطعة، وبراهينها الساطعة، الموصلة إلىٰ علم اليقين، المزيلة لكل شك، ذكر هنا أن ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ مع هذا البيان التام ﴿مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾»(١).

وصف الله بمقتضى الآية:

قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ بعد أن سمعت قول الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة تكلم رسول الله ﷺ وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول»(٢).

من أغضب الجليل حتى حلف:

سمع أعرابي قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٣]، فصاح وقال: يا سبحان الله! من أغضب الجليل حتىٰ حلف! ألم يصدقوه في قوله؟!(٣).

الخوف من العقوبة:

عن عكرمة ـ رحمه الله ـ قال: جئت ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وهو يبكي، وإذا المصحف بين يديه في حجره فأعظمت أن أدنو منه، ثم لم أزل علىٰ ذلك حتىٰ تقدمت فجلست فقلت: ما يبكيك يا ابن عباس! جعلني الله فداك؟ فقال: هؤلاء الورقات. وإذا هو في سورة الأعراف... وذكر له أصحاب السبت... ثم قرأ ابن عباس: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ١/ ١٢١.

(٢) رواه أحمد، ٦/ ٤٦؛ والنسائي، ٦/ ١٦٨؛ وابن ماجه، رقم ٢٠٦٣؛ والبخاري تعليقاً، ك/ ٩٧، ب/ ٩؛ الحاكم ٢/ ٤٨١، وصححه ووافقه الذهبي، قال محقق جامع الأصول: وإسناده صحيح، ٢/ ٣٧٩.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ١٧/ ٤٢.

وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥]، قال: فأرىٰ الذين نهوا قد نجوا، ولا أرىٰ الآخرين ذُكروا، ونحن نرىٰ أشياء ننكرها ولا نقول فيها. قال: قلت: جعلني الله فداك! ألا ترىٰ أنهم قد كرهوا ما هم عليه وخالفوهم وقالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ [الأعراف: ١٦٤]؟! قال: فأمر لي فكُسيت ثوبين غليظين»(١).

آية أسهرتني:

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «قال عمر بن خطاب - رضي الله عنه - قرأت الليلة آية أسهرتني: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ [البقرة: ٢٦٦] ما عني؟ فقال بعض القوم: الله أعلم. فقال: إني أعلم أن الله أعلم، ولكن إنما سألت إن كان عند أحد منكم علم وسمع فيها بشيء أن يخبر بما سمع. فسكتوا فرآني أهمس، قال: قل يا ابن أخي، ولا تحقر نفسك. قلت: عني بها العمل. فتركني، وأقبل وهو يفسرها ويقول: صدقت يا ابن أخي، عني بها العمل، ابن آدم أفقر ما يكون إلىٰ جنته إذا كبر سنه، وكثر عياله، وابن آدم أفقر ما يكون إلىٰ عمله يوم القيامة، صدقت يا ابن أخي»(٢).

وعن المطلب بن عبد الله - رحمه الله - قال: «قرأ ابن الزبير - رضي الله عنهما - آية فوقف عندها، أسهرته حتىٰ أصبح، فدعا ابن عباس - رضي الله عنهما - فقال: إني قرأت آية وقفت الليلة عندها فأسهرتني حتىٰ أصبحت: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]؟ فقال ابن عباس - رضي الله عنهما -: لا تسهرك إنما عني بها المشركون. ثم قرأ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، فهم يؤمنون هنا ويشركون بالله»(٣).

---

(١) ذكره ابن كثير عن عبد الرزاق بسنده، ٢ / ٢٤٧.

(٢) أخرجه عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن المبارك، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم مختصراً وصححه، ٣ / ٥٤٢؛ كما في كنز العمال، ١ / ٢٣٤. انظر: حياة الصحابة، ٣ / ٢١٩، وللقصة شاهد عند البخاري سبق ذكرها، ص ١٤٣.

(٣) مختصر قيام الليل، للمروزي، ص ١٤٩.

الخاتمة

من أجل قراءة مؤثرة للقرآن

أولاً: يستحضر القارئ قبل القراءة درجات تدبر القرآن، وهل سيقصد التأمل والتفكر؟ أو الخشوع والتأثر؟ أو محاسبة النفس؟ أو استنباط الحِكَم والأحكام؟ ولا يضيره بعد ذلك أن يضم في تدبره للآيات بعض هذه الأمور، لكن المهم أن يحصل تنبيه وتذكير للقلب بما هو مقبل عليه وكيف يقبل عليه.

ثانياً: يستحضر القارئ عظمة القرآن، وجلالة قدره، وعلو منزلته، وجزيل إنعام الله على من قرأه، فيتهيأ لكلام الله بالوجل والخوف والرجاء، والفرح به؛ عسى أن يظفر بالمقصود من إنزاله، وليتهيأ لذلك ظاهراً وباطناً.

ثالثاً: إذا استعاذ بالله من الشيطان الرجيم فليستحضر طلب العون من الله من كيد الشيطان؛ فإنه يسعى جهده لصد القارئ عن كلام الله، ويحول دونه ودون الانتفاع بالقرآن، فهو إما أن يشغل قلبه عن النظر في معانيه، أو يصرفه فهمه إلى غير المقصود، فليستعذ بالله من كيده وشره ومكره، والمعصوم من عصمه الله.

رابعاً: وحين يقرأ القرآن يرتل ويترسل؛ كالباحث عن معنى يخفى بالقراءة السريعة، فهمَّته عرض المعاني على القلب؛ عسى أن يتأثر أو يخشع، ليست همَّته: متى يختم السورة؟ فهو لا يرضى لنفسه أن يقرأ آية لم يقف عند مدلولها، أو لا يعرف المقصود منها، أو يجهل تفسير كلماتها.

خامساً: مما يعين القارئ على معرفة دلائل الآيات: النظر في مورد السياق (الكلام السابق واللاحق)، واستحضار موضوع السورة، أو المقطع أو المشهد

الذي تصوره الآيات، والبحث عن حكمة الترتيب، ووجه التعقيب في آخر الآية، والغاية التي تدور حولها الآيات، والنظر في ذلك كله، مع تصور الأثر المقصود الذي تحدثه في نفس القارئ، ونفوس السامعين؛ فيسبّح تارة، ويسأل تارة، ويستعيذ تارة أخرىٰ.

سادساً: من أعظم ما يعين القارئ علىٰ استحضار مقصود الآيات، ووجوه تأثيرها علىٰ نفسه وقلبه؛ معرفة أجواء التنزيل، وكيف تلقىٰ الرسول ﷺ الآيات، وكيف وقعت في نفوس الصحابة موقعها حين سمعوها لأول وهلة.

سابعاً: تعويد القارئ نفسه النظر فيما ينبغي عليه نحو دلالات الآية وإشاراتها، فإذا مر بآية فيها خطاب للأنبياء علم أنه مخاطب بذلك من باب أولىٰ، وإذا قرأ ثناء الله علىٰ أعمال الأنبياء والصالحين علم أنه مخاطب بذلك، وأن تأثره مقصود واقتداءه مطلوب، وإذا مر بذم الله لأعمال العصاة والظالمين علم أنه مخاطب بذلك، وأن تأثره مقصود، وحذره مطلوب.

ثامناً: إذا تأثر بآية، وانتفع بها قلبه، فرح بها وكررها وأعاد النظر فيها، فلا يتجاوزها حتىٰ تنطبع معانيها في قلبه، وينشرح بها صدره.

أهم المراجع

١ ـ **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث.

٢ ـ **الجامع لأحكام القرآن**، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني، مكتبة الرياض، الطبعة الثانية.

٣ ـ **تفسير القرآن العظيم**، ابن كثير، تحقيق: دارالقلم، دار القلم.

٤ ـ **فتح القدير**، أحمد بن علي الشوكاني، مكتبة المعارف.

٥ ـ **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: عبد الرحمن اللويحق، مكتبة الرشد، الطبعة الثانية، ١٤٢١هـ.

٦ ـ **مقدمة في أصول التفسير**، شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عدنان زرزور، دار القرآن الكريم، الطبعة الثالثة، ١٣٩٩هـ.

٧ ـ **الإتقان في علوم القرآن**، عبد الرحمن السيوطي، دار المعرفة.

٨ ـ **البرهان في علوم القرآن**، محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

٩ ـ **القواعد الحسان لتفسير القرآن**، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

١٠ ـ **التبيان في آداب حملة القرآن**، يحيى بن شرف النووي، تحقيق: مجدي السيد إبراهيم، مكتبة القرآن.

١١ ـ **أخلاق حملة القرآن**، محمد بن حسين الآجري، تحقيق: فؤاد أحمد

زمرلي، دار الكتاب العربي.

١٢ ـ **جامع الأصول**، ابن الأثير، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، دار الفكر.

١٣ ـ **شرح السنة**، البغوي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، المكتب الإسلامي.

١٤ ـ **فتح الباري**، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تعليق: ابن باز، إشراف الخطيب، ترقيم عبد الباقي، دار المعرفة.

١٥ ـ **مجموع فتاوى شيخ الإسلام**، شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبد الرحمن القاسم، الرئاسة العامة لشؤون الحرمين.

١٦ ـ **زاد المعاد**، ابن قيم الجوزية، تحقيق: عبد القادر وشعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة.

١٧ ـ **مدارج السالكين**، ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، ١٣٩٢هـ.

١٨ ـ **مفتاح دار السعادة**، ابن قيم الجوزية، سيد إبراهيم وعلي محمد، دار زمزم.

١٩ ـ **إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان**، ابن قيم الجوزية، دار المعرفة.

٢٠ ـ **الآداب الشرعية**، محمد بن مفلح، تحقيق: شعيب الأرناؤوط والقيام، مؤسسة الرسالة.

٢١ ـ **مختصر منهاج القاصدين**، أحمد بن عبد الرحمن المقدسي، تحقيق: شعيب وعبد القادر الأرناؤوط، مكتبة دار البيان، ١٣٩٨هـ.

٢٢ ـ **حياة الصحابة**، محمد يوسف الكاندهلوي، دار القلم.

فهرس الموضوعات

الموضــــوع	الصفحــــة

الموضـــوع | الصفحـــة

المبحث الثالث

المبحث الرابع

الموضـــوع | الصفحـــة

الموضـــوع	الصفحـــة

مطابع اضواء المنتدى ت:٠١/٢٤٣٤٩٢٥